الفهرس

محمد الميمونى

توقيع بالاسود على الصفحة الاخيرة

- «انى أحمل نفسى جثة
هامدة ، لا قبر اواريها
لو القيهـا بـذرة
لن تعطى فى هذى التربة
غير الرعـوة
لكنى أكون مع التاريخ على خير وفاق
فى الماضى كنت أظن الزمن يسير أماما
فاذا هو هرم يتململ
لكنه لا يخطو خطوة .
والليل الممتد الحالـك
اطفأ كل نجومه
دجن أمواج البحر
ونام على صدر الجبل الجامد
الليلة لا يحلم عصفور بالصبح .

- كم يتبارى الخصمان : الظلمة والضياء
تسود الظلمة حتى ما يسلك فيها سالك
لكن العصفور المتدفىء بالحلم الصادق
يتغنى فى حلمه بالفجر .

ـ ان ينقطع المدد وتبقى معزولا فى الصحراء
بلا ماء وبلا صاحب ،
فتصيح : «أنا مهـزوم»
لا توصف بالهرب وبالجبن ،
اني ميت منذ فقدت سلاحي
ورفاق السير ودربى
حين انطلقت أولى صيحات الحرب
وتبخر من يدى السيف ـ الحلم
وتجمد تحتى فرسى كومة ثلج
ليست للكر ولا للفر ،
يحمل كل المنهزمين خرائط
تفضى الاولى للياس
والثانية لاعماق الحبس
ويسد طريق الثالثة الحائط

ـ ارض الزنزانة لاتنبت يأسا
والحائط يهوى ان مسا
فاليأس اذن يتفرع من قلب فارغ •
فى البحر الصاخب ، لاتصمت موجة
حتى تلقى بالعمر الى الصخر المتوحش
فى الشاطىء ،
فى الريح العاصف لاتخمد نسمة
او تتلاشى فى هاوية الكون الصامت •

م . الميمونى　　　　ابريل ١٩٧٣

البشير الوادنوني

الرواية المغربية والاشكالية الاجتماعية

مقدمـة :

فى فترة تاريخية معينة ذات خصوصيات واضحة استطاعـت الرواية ـ كشكل أدبي مستحدث ـ أن تنشأ وتتطور عبر كثير من التجارب الفنية والمحاولات الاصيلة التى رسخت مقومات هذا الفـن وارست تقاليده الشكلية على الخصوص ، كانت تلك الفترة تتحكم فيها شروطا موضوعية وذاتية معطاة استلزمت حتمـا ولادة هـذا الشكل الجديد • لقد انصرمت الآن عقود كثيرة على الحقبة التـى كان الناس فى اوروبا يجلسون الى مدفآتهم يقضون الساعات الطوال متلذذين بروائع لامثال بلزاك وفلوبيـر وتولتسـوى وغيرهـم • اكيد ان مياها كثيرة جرت تحت الجسر ، منذ ذلك التاريخ ، وهذه التحولات التى عرفتها أوجه الحياة الاجتماعية هى التى تطرح بالضبط سؤالا يضع فن الرواية موضع استفهام : ترى هل بدأ هذا الشكـل الادبى يفقد مبرر وجـوده ، أم أنـه لايـزال يقـوى على الصمـود والاستمرار ؟ ان هناك عوامل متضافرة أسهمت فى نشأة وتطور هذا الفن وساعدته على البقاء : التاريخ كمقولة فكرية عامة تقوم بوظيفة تنظير حضارة الانسان المادية ، ومؤسسـات لاهوتيـة تلعب دور الايديولوجيا الاستلابية تضيع الانسان وتخفى عنه حقيقة نفسـه (رواية الاحمر والاسود لستندال وديربارما) ، والمذاهب الفلسفية الكبرى التى شهدتها أوروبا الغربية : عقلانية ديكارت وروماسيـة

روسو ، ونقدية «كانت» ، وكان واقع التشكل الاجتماعي يقف وراء هذا كله ويدعمه • لقد أثمرت الفلسفات الكبرى والمذاهب الادبية اشكالها وأجناسها الفنية المختلفة : فللكلاسيكية باعتبارها ، من المنظور الجدلي ، المرادف الجمالي للاقطاعية الفيودالية (حكم لويس ١٤) شعرها ومسرحها وقصتها وجميع تعبيراتها الخاضعة لتقاليدها وقواعدها الصارمة ، والرومانسية باعتبارها من جهتها المعادل الموضوعي للنظام البورجوازي المتنامي ، أدبها وروايتها •• ونفس الشيء يصدق على الواقعية والطبيعة •••

وفي عالمنا هذا الذي وصف بحق بأنه «اشكالي» «لان الكائن البشري الاكثر قبولا فيه هو الكائن المعقد الاشكالي» على حد تعبير لوكاش ، هل تستطيع الرواية أن تستمر كتاريخ أو كسيرة ذاتية أو بصفة عامة كمفهوم كلاسيكي بورجوازي لشكل أدبي انجبته الراسمالية الغربية في احدى مراحل توطرها ، أم أنها (الرواية) ستظل «ذلك الشكل الادبي الرئيسي لعالم ليس فيه الانسان في بيته وليس غريبا تماما» أي «الشكل الجدلي للملحمة ، شكل الغربة في الجماعة ، شكل الامل بلا مستقبل ، شكل الحضور في الغياب» ؟

ان نقل مثل هذه التساؤلات من التاريخ الى الواقع اليومي الحي عندنا نحن البلد الذي عاش وعاني من ضغط المراحل الرأسمالية (المرحلة المركنتيلية على يد اسبانيا والبرتغال ، والمرحلة الصناعية الغازية ، ثم المرحلة الاحتكارية والمالية ، حاليا) ليتطلب مسحا جادا للمسار الذي انتهجته الرواية المغربية •

ففي غضون الستينات ـ وهذا العقد هو في نظرنا اهم نقطة لتوقيت البداية ـ أخذت الرواية المغربية تحتل حيزا كبيرا في مسار الحركة الادبية • وكان لها الفضل الى جانب الفنون الادبية الاخرى مثل المسرح والشعر ، في امتصاص وبلورة بعض من اهتماماتنا التاريخية، وتجلية مجموعة من مشاكلنا الاجتماعية والثقافية الراهنة،

اى انها حاولت ان تعبر عن اشكالية الواقع المغربى منذ الاستقلال ، وكانت الرواية فى نفس الوقت دليلا كاشفا ، على مظاهر جدلية الصراع الذى انخرط فيه مجتمعنا منذ ذلك التاريخ ، بل وقبل ٥٦ بسنوات • على أنه من الاجحاف أن نقر للرواية المغربية بكل هذه المزية ، وأن ننسب لها تلك المهمة الصعبة الايجابية ، لان بعض رواياتنا لم تسر دائما فى السياق السابق ولم تخلص بالتالى للواقع المادى وحقائقه الموضوعية بقدر اخلاصها لنوايا مؤلفيها ونزواتهم الذاتية ، وهنا بالضبط تكمن اشكالية الموقف الروائى عندنا • ليس من شك فى أننا نستطيع التماس عدة حلول وافتراضات لفض هذه الاشكالية ، يكمن بعضها فى الاستنتاجات التى يمكن الخروج بها من تحليل الاحداث التى تمور بها البلاد ، وينبثق بعضها الآخر بصفة خاصة ، من دراسة الوضع الثقافى السائد فى البلاد مع الاعتراف أنه لايمكن مطلقا الفصل بين الاحداث وذلك الموقف الثقافى • والاكيد حقا فى هذا الصدد أن الاستنتاج الذى يتمخض عن الدراسة الموضوعية يتمثل فى حقيقة أساسية تكاد تشكل قناعة مشتركة يؤمن بها اغلب المهتمين ، هى قصور الرؤية الفنية عند روائيينا ، وعجزهم عن تمثل واستقصاء كل أبعاد التجربة التى يعبرون عنها ، واستيعاب المعطيات الاجتماعية لبلورتها فنيا وصياغتها بشمولية ورحابة فكر • وهذا القصور يمثله الى حد ما الضحالة الفكرية التى تسود معظم الروايات التى صدرت فى هذا العقد السادس ، فبعضها يتكىء على التاريخ الوطنى ليشوهه أو ينقله نقلا فوتوغرافيا يبلغ درجة الابتذال والترديد (المخاض ـ دفنا الماضى) وبعضها الآخر يفتعل المواقف ويغتال الفن (بوتقة الحياة ـ غدا تتبدل الارض) بينما نجد روايات تعتمد على الذاتية وتجتر الاحزان الداخلية والآلام الفردية بطريقة رومانسية سمجة وتقنية هشة او فى أحسن الاحوال مستعارة (الطيبون ـ المرآة والوردة ـ الغربة) ، وفضلا عن ذلك كله تبدو شخوص هذه الروايات مهزوزة متهافتة لاتقوى على الثبات لان رؤية الكاتب غالبا ما تفتقر الى الخلفيات الاجتماعية والفكرية الناضجة التى

تدعم العمل الادبي وتعطيه ابعاده الحقيقية ، ومن هنا ايضا كانت المجموعة الروائية التي صدرت في أوساط الستينات مشتتة ، باهتة وهجينة ، تلتقي فيها جميع المذاهب والتيارات التي انتجها الغرب وتحمل أكثر سمات الرواية الغربية سلبية • فالرواية عندنا ـ رغم التحولات الهائلة والتجارب المريرة ـ لم تستطع أن تتجاوز التقليد والتاريخية لتواكب معطيات الواقع الجديدة وتبشر بالطور الجنيني الذي تحبل به هذه الارض المعطاء •

وعلى الرغم من أن السنوات التي سلختها الرواية المغربية من عمرها لاتسمح بتقييم موضوعي وأمين لهذه التجربة القصيرة (بالنسبة لاعم الرواية العربية خاصة) ، فانه لم يعد بالوسع ، أمام مستلزمات المرحلة التاريخية الجديدة ، تجاهل هذه الانجازات الفنية الراهنة أو التغاضي عنها ، لانها رغم اقرارنا بضعفها الفني نسبيا وقصور أصحابها الفكري ، فهي على أية حال تشكل ظاهرة تستحق التمحيص لانها ـ من غير أن يحتاج الامر الى تأكيد ـ مظهر من مظاهر الصراع ، وهذا وحده حري بخلق ضرورة الانتباه اليها والنظر اليها نظرة نقدية متفحصة ، تستجلي مضامينها وأشكالها ، وتبرز انتماءها ومدى تمثيلها لتجربة الواقع وصراعاته العاتية •

ان الرواية المغربية ، بالشكل الذي ظهرت عليه هنا في المغرب، وبالنظر الى الظروف الاجتماعية التي أفرزتها (مثل نظيرتها في أوروبا في القرن ١٩) لم تنبت خارج مدار الصراع الاجتماعي الذي عرفته مرحلة ما بعد الاستقلال ، والذي تبلور في نقاط تاريخية حساسة تؤرخ لها بعنف سنوات ٥٩ ـ ٦٣ ـ ٦٥ ـ ٧٠ ـ ٧٢ • ان تعاقب هذه الاحداث يدل على أن التاريخ ليس جامدا وعلى أن الصراع يسير مطردا تبعا لجدلية محكمة ومرسومة • ولقد كان من المنتظر ، ارتكازا على التقييم المخلص للواقع الموضوعي وللقوى الاجتماعية المتواجدة فيه أن تظهر الرواية عندنا ، بالمفهوم والشكل اللذين عرفت بهما في الغرب ابتداء من الثلث الاخير للقرن ١٨ ، لا كمجرد ترف ذهني

وثقافى ، بل وفى المقام الاول ، كتعبير عن قوات وعلاقات تسـود الساحة الاجتماعية ، وتحتل من ثم وبحكم تفوقها المادى والاقتصادى المواقع الامامية فى الحركة الثقافية . فالبورجوازية التى قادت معركة الاستقلال ، تمكنت رغم تفسخها وانقسامها على نفسها من أن تستمر فى بسط هيمنتها على الصعيدين المادى والفكرى ، كما تمكنت وبنفس القوة من الصمود فى وجه التحديات والمضايقات التـى عانت منهـا بسبب وجود قوى أخرى بغيضة شكلت فيما بينها نوعا من «التحالف المقدس» . وفى خط مواز وبنفس القـدرة ، تمكنت البورجوازيـة الصغرى التى عبرت عن وجودها رسميا وعلنا فى ٥٩ ، من أن تساهم ومن منظورها الخاص ، فى اثراء الحركة الادبية وفرض نموذجهـا الفنى الذى لم يكتف فقط برصد الهزائم التى ألحقت بهذه الطبقـة واستثمارها كخلفية فكرية وايديولوجية تغنى العمل الفنى (الشعر ـ الاقصوصة ـ الرواية) ولكنه جاء ليكشف عن طبيعـة هذه القـوة الاجتماعية الصاعدة وفى ذات الوقت ، عن عجزها عن مواصلة مهام تاريخية ربما يكون حجمها أكبر من قدرة تلك القوة وتكوينها الخاص .

كان النزاع قويا ـ وما يزال متواصلا ـ بين مختلف هـذه القوى ، وكان على كل مجموعة اجتماعية أن تعطى كل ما عندها فـى المجال الثقافى ، وكأنها تبتغى بذلك العطاء أن يكون وسيلة من وسائل اثبات وجودها ورديفا فكريا يدعم ايديولوجيتها ويعزز موقعها كطبقة تريد ان تستقطب أكبر عدد من رجال القلم والفكر ، وكان من الطبيعى كذلك ان تختار كل مجموعة المصادر والينابيع التى تعتبرها مواد خام صالحة لتمتاح منها مضامينها الملائمة وأفكارها المعبرة عن أمجادها التليدة ، أو عن مطامحها الآنية أو البعيدة .

هكذا وقع التركيز بصفة اساسية على الماضى (بالنسبة للطبقة المتوسطة) باعتباره نبعا ثرا وتاريخا حافلا بالتضحيات والمكاسـب (دفنا الماضى) ، فى حين انصب اهتمام مثقفى الطبقة الصغرى علـى الواقع العيانى المعاش ، حيث راح هؤلاء ينتقدونه ويعرون مظاهـره

الشائهة ، لاستغلاله فنيا وجماليا في اعمال ادبية ، نحتوا ابطالها وشخصياتها من نماذجه البشرية المقهورة ، فليس بدعا تبعا لذلك ان يحتل الانسان البسيط المعدم ، وآلام الذات الحزينة ، والغربة والضياع الخ ٠٠ مركز الصدارة في أعمال هؤلاء المثقفين الممثلين لهذه الجماعة الاجتماعية النامية التي خرجت من أحشاء البورجوازية وأصبحت تدعي أنها «صاحبة المصلحة الحقيقية» في البلاد ٠ يمكن القول اذن أن الانجازات التي طالعتنا منذ بداية الستينات ، تعتبر تمثيلا فنيا للقوى الاجتماعية المتعايشة في صراع يحتد تارة ويخبو أخرى ، والتناقضات التي أذكت ذلك الصراع على المستوى السياسي خاصة كان لها انعكاس مباشر في الحقل الادبي والفكري ٠ واذا كان ثمة من خصوصية تطبع العقد السادس في بلادنا فهي من غير ريب الاخفاقات المتوالية التي فجع بها اليسار (الاسباب ذاتية اكثر منها موضوعية على ما يبدو) ، على أن هذا الانكسار في صفوف الحركة التقدمية لاينهض وحده كسبب رئيسي لظهور روايات وأشكال ادبية تعزف نغمة الرفض والاحتجاج وتعنى بالنماذج المقهورة في المجتمع ، طالما ان المبرر الجوهري لنشاط الحركة الادبية عموما يعود اساسا الى الصراع المادي بين الجماعات الاجتماعية المتمثلة في القوى الاساسية المتواجدة فوق المسرح الاجتماعي ، وبرهن أن هذا الصراع والتناحر سيستمر طالما بقيت البنية المادية لهذا المجتمع لاتختلف في شيء (أكاد أقول امتدادا) عن بنية بلد كفرنسا في مرحلة انتصار البورجوازية ان لم نقل مرحلة ما قبل ١٧٨٩ ٠

ومع الاعتراف بالخصوصيات التي ينفرد بها واقعنا ، فلا يسعنا سوى أن نقرر أن هناك فعلا تماثلا بين فترتنا التاريخية هذه وتلك التي عاشتها أوروبا في القرن ١٩ ٠ وهذا ما يؤكد شيئا واحدا وهو ان الرواية عندنا لاتعدو في حقيقتها أن تكون جزءا من جملة موروثنا عن الغرب البورجوازي ، فطبيعة الايديولوجيا هي التي انتجت وأملت هذا الشكل الفني هناك وهنا ، وبهذا يحق ان ندفع

بكل تاويل لايتمشى مع الموضوعية السابقة ، وان نرفض الفهم الموهوم الذى يحاول بعض كتابنا ان يعطيه لاعماله الفنية ، فغلاب مثلا يكتب على ظهر روايته الاولى ، عبارة تقرر أنها تمثل «فترة صراع نفسى وفكرى ومجتمعى اصطدم فيه جيلان كاقوى ما يكون الاصطدام» فما يعنيه غلاب بصدام جيلين (تعبير فيه مواربة وخداع) ليس فى واقع الامر شيئا آخر سوى مظهر من مظاهر النزاع الطبقى الذى بدأ يذر قرنه فى مجتمع ما قبل الاستقلال ، والذى ازداد حدة ووضوحا فى المرحلة الراهنة بتعاقب تجارب اليسار وانكساراته • وقد بدا واضحا الان أن البورجوازية بقسميها قد استنفدت امكاناتها بعد أن حاولت السير بالبلاد نحو المرحلة الديمقراطية من الثورة البورجوازية وان كان افلاس الطبقة الوسطى وتوقف فعاليتها التاريخية قد كشفا عن نفسيهما مباشرة عقب ٥٦ • ولما كانت غالبية الانجازات الروائية تعلن عن نفسها كممثلة لهاتين الطبقتين ، فان المثقفين الذين اسهموا فى ابداعها ظلوا متشبثين بأوهام الطهر البورجوازى ـ باعتبارهم طليعة هاتين الطبقتين ـ وبسبب ذلك بقى الضباب القومى يرين على جو رواياتهم •

اكيد اذن ان القصور الفنى الذى يصور كثيرا من أعمالهم الروائية ليس ناتجا بالضرورة عن غياب التقاليد والاعراف الفنية الروائية فى أدبنا العربى فحسب ، بل هو ناتج أساسا عن افتقار رؤية روائيينا هؤلاء الى الفهم الصحيح لجدلية الصراع الدائمة التى تحرك العلاقات الاجتماعية وتسيرها بحتمية تاريخية نحو مصيرها النهائى • وهذا العيب بالذات هو الذى أفقد الرواية المغربية فى هذا العقد نسغها الحقيقى ونكهتها الواقعية بان جعلها فجة خالية من البعد الثورى محصورة فى أفق بورجوازى ضيق لاتقوى على احتضان وتمثل الانسياق الراهن لهذه المرحلة التاريخية الحرجة ، وهذا ما يفسر من جهة ثانية انتشار اعراض النزعة الذاتية فى نماذج اخرى من رواياتنا (جيل الظما ، المراة والوردة) والعناية البالغة بسرد التوافه

واجترار الاحزان الفردية تلوكها ذات مريضة وتجعل منها رواية مما يوضح أن هؤلاء الكتاب لم يفكروا وهم يهمون بتسجيل خواطرهم وتخطيط رواياتهم بوضع الانسان المغربي ومستقبله بقدر ما كانوا يفكرون في أنفسهم وهمومهم الشخصية • انهم بحكم تكوينهم وانتمائهم الاجتماعي غير قادرين على احتضان الاتساق الراهن لهذه المرحلة التاريخية الحرجة أو حمل تصور واضح عن أفق المستقبل • وهذا القصور في الفهم والتفسير لايمكن ادراك عوامله البعيدة الا من خلال تحليل ارتباط الشكل الروائي كما ظهر في الغرب بالواقع الاجتماعي الذي انتجه والمواقف التي اتخذها كتابنا لعكس وبلورة هذه العلاقة عبر رؤية معينة للواقع وعلاقات الانتاج ودور كل جماعة اجتماعية •

ولنبدأ بهذا الشكل الادبي نفسه : انه كمصطلح ، ليس كما يرى اغلب روائيينا سردا طويلا للاحداث والواقع ، بقدر ما هو «بحث عن قيم حقيقية في عالم منحط» يتميز بانفصام منيع بين البطل والعالم ، والبطل ــ كما يؤكد لوكاش ــ شخصية اشكالية ، يكون بحثه المنحط ، وبالتالي غير الحقيقي ، عن قيم حقيقية في عالم الامتثال والتعاقد ، مضمون هذا الشكل الادبي الجديد الذي خلقه الكتاب في مجتمع الفردية والمسمى رواية •

هناك اذن تشابه كبير بين الرواية كشكل ادبي له حدوده وضوابطه ، والشكل التبادلي في النظام الليبرالي (الاقتصاد الحر) ، وهذا التشابه يفترض ــ كما بين لوكاش ــ وكولدمان وجيرار الى حد ما ، ومن زاوية فلسفية مغايرة ، ان الشكل الروائي هو تحويل على المستوى الادبي للحياة اليومية ، أو هو بديل لهذه الحياة في المجتمع الفردي الناشيء عن الانتاج من اجل السوق • وهذا الافتراض يثبت حقيقة التشابه بين الشكل الروائي من جهة ، وعلاقة الناس الصحيحة بخيراتهم ، وعلاقتهم فيما بينهم في مجتمع ينتج من اجل السوق ، من جهة اخرى ، اي المجتمع الذي تسيطر عليه قيم التبادل

التى تحل محل قيم الاستعمال ، وهذه الاخيرة تستمر موجودة طبعا، الا أن تأثيرها فى الحياة الاقتصادية يتخذ طابعا ضمنيا ، تماما مثل القيم الحقيقية فى العالم الروائى ٠

اما على مستوى الوعى والظاهر ، تتكون الحياة الاقتصادية من اناس موجهين خاصة نحو قيم التبادل (القيم المنحطة) الذين ينضاف اليهم فى الانتاج بعض الافراد الذين ينتجون فى كل ميدان ـ والذين يظلون موجهين أساسا نحو قيم الاستعمال ، فيقفون بسبب ذلك على هامش المجتمع ويصبحون أفرادا اشكاليين ، وطبعا حتى هؤلاء ـ الا أن نقبل الوهم (رينى جيرار يسميه الكذب فى كتابه الصادر فى ١٩٦١ : الكذب الرومانتيكى والحقيقة الروائية) الرومانتيكى ، وهم القطيعة التامة بين الجوهر والمظهر ، بين الحياة الداخلية والحياة الاجتماعية ، لايمكن أن ينخدعوا بالتدهور الذى يتحمله نشاطهم الابداعى فى المجتمع المنتج من أجل السوق عندما يظهر هذا النشاط فى الخارج فى شكل رواية (كتاب) أو لوحة او تعليم او موسيقى٠٠ فيكون له امتياز ويكون له من أجل ذلك ثمن ٠ وهكذا فان نشأة الرواية كشكل أدبى ليست مفاجئة : فالشكل الخارجى المعقد جدا الذى تمثله الرواية فى الظاهر هو الشكل الذى يعيش فيه الناس كل يوم عندما يكونون مرغمين بالبحث عن كل نوع وكل قيمة استعمال على طريقة متدهورة بواسطة الكم وقيمة التبادل ٠ وهكذا فان البنيتين: بنية الشكل الروائى ، وبنية التبادل ، توجدان متشابهتين قطعا الى درجة نستطيع معها الحديث عن نفس البنية التى تتجلى على مستويين مختلفين ٠ المهم من كل هذا كما يقرر كولدمان بحق ، أن الفرد الاشكالى (يمثله الكتاب وأصحاب الفكر فى المجتمع الرأسمالى) يظل مرتبطا بقيم الاستعمال الكيفية ، وبنوعية عمله دون أن يستطيع الانفلات من تأثير السوق ، وان كل عمل فكرى لايمكن أن يكون تعبيرا عن خبرة فردية خالصة فحسب ، فالرواية تبعا للتحليل السالف ، تشكل قيمة من قيم المجتمع الراسمالى الذى انشأ لنفسه

وبحكم المنافسة الحرة قيما خاصة خالية من المحتوى احيانا مثل الحرية والمساواة ، والملكية ٠٠ ليبرر بها تسامحه وتفتحه وفضله ، وتحجب بها نواقصه ٠

ان هذه الشهادة التي اخذت من كولدمان لاتكفي وحدها لابراز العلاقة الجدلية المستحكمة بين الرواية والواقع المادى الذى انجبها فى المجتمع البورجوازى ، هناك الى جانب علم الاجتماع الذى كان سباقا الى الاهتمام بهذا الارتباط بين الشكلين : المادى والادبى ، هنـاك التاريخ الذى تعتبر الرواية صنوا له ٠ يقول بارت فى «درجة الصفر فى الكتابة» ص ٢٥ «كانت للرواية والتاريخ صلات حميمة فى القرن نفسه الذى شهد أكبر انطلاقتهما العميقة ، والذى كان يوجب فهم كل من بلزاك وميشليه ، هو عند الاول والثانى ، بناء عالم استكفائى يضع هو نفسه ابعاده وحدوده ، ويرسى فيهما زمنه وفضـاءه ومكانـه ، ومجموع اشيائه وأساطيره» ٠

اليس فى هذه الكلمات ما يشير الى ان الروايـة كما عرفهـا الغرب فى القرن ١٩ ، وكما نعرفها نحن اليوم على يد بعض كتابنا ، ليست سوى تاريخ مكتوب باسلوب ادبي يعكس بعضا من حقائـق المجتمع وتصورات الطبقات عنه ، أليس فيها ما يؤكد بالتالى نوعا من الموازاة بين البنيتين التحتية والفوقيـة ، وانباح كـل بنية ماديـة لاشكالها فى التعبير عن واقعها الاجتماعى ورؤيتها الايديولوجيـة ؟ ثم ان ثمة فى الرواية الغربية وفى روايتنا لجوءا الى الذاكرة (وهذا شيء مهم جدا وأساسى) ونقلا من الماضى الى الحاضر ، وعلى أية حال ففى كل هذا دلالة كبيرة على أن الرواية مثلها مثل الفن اليونانـى القديم ، بالنسبة للانسانية ، لا زالت تمثل «الطفولـة الاجتماعيـة للبورجوازية فى اجمل لحظات نموها» ٠ فهل تصدق هذه العبارة على روايتنا اليوم فى العقد السادس من هذا القرن ؟

لابد لاثبات ذلك من قراءة الانجازات الروائية التـى ظهـرت مؤخرا فى السوق ، قراءة «آثمة» «مشخصة للاعراض» تحدد مجالها

الحيوى ، وتكشف عن آليتها وبنياتها الفنية ، (مع التأكيد على ما فى تسمية «الرواية المغربية» من تعسف وتجاوز • لذلك كله كان الحديث عن الرواية المغربية مقرونا بالاشارة الى ارتباط هذا الشكل الادبى المتسع بالجذور الاجتماعية التى غذته بنسغها ، مسالة ملحة، وضرورة تفرضها منهجية البحث التمهيدى ، للكشف عن الهياكل والبنيات التى ساهمت فى تأطير قد اصبح الان موضوع تساؤل، ومادة تغيير وتحوير • فعندما ظهرت بعض الروايات عندنا فى أوساط العقد السادس من هذا القرن ، كانت الاذهان ـ كما سبق القول ـ قد توطنت على قبول الاعتراف بوجود ثلاث نظريات تمثل كل واحدة منها نمطا معينا من أنماط التفكير والممارسة ، واختيارا من الاختيارات التى تمليها طبيعة القوة الاجتماعية ، صاحبة المصلحة ، وفلسفتها فى القيادة والتوجيه : قوة أولى صاحبة «امتياز» فى البناء الاجتماعى ، تتمسك بكونها صاحبة الشرعية ، وترفض بسبب ذلك ، وتدعيما لتلك الصفة اية مساومة أو تنازل عن موروث مقدس ، يمكن اعتباره «هبة تاريخية» • والقوة الثانية الاكثر ديمقراطية وثورية لانها امتداد للبورجوازية الاوروبية التى خلقت انسان ٨٩ ولانها هى التى قادت هنا فى المغرب الحركة الوطنية برؤية وايديولوجية ذات بعد اصلاحى حسير ، وهى التى قال عنها أحد فلاسفتها ومنظريها فى الشرق «انها صاحبة المصلحة الحقيقية» فى البلاد • أما الثالثة والاخيرة فهى البورجوازية الصغيرة ربيبة القوة الثانية ، التى خرجت من أحشائها لتدخل معها بعدئذ فى حلف ثنائى من أجل دحر السلطة الفعلية • واما العوامل التى رتبت ظهور وتواجد هذه القوى فهى الواقع التاريخى الذى استمر قرونا ، والواقع البشرى الثابت الذى أغرى المستعمر واستتبع الملابسات الدولية المعروفة وأخيرا دوب كل واحدة من هذه الجماعات الاجتماعية فى الانتاج ، ولقد تمخض عن هذه العوامل مجتمعة التشكل الاجتماعى الراهن الذى تلا المرحلة الاستعمارية •

وكان من الطبيعى أن تظهر فى المرحلة الجديدة روايات تنتسب الى هذه الجماعة الاجتماعية أو تلك طالما ان كل فئة من هذه الفئات

تملك ايديولوجيتها وتفكيرها الخاص النابع من الاساس المادي ، والشروط الاقتصادية والتاريخية التي شكلت وجودها ٠

في البداية كان هناك قاسم مشترك ظهر في صورة حتمية تاريخية أدت الى تحالف هذه القوى التي وجدت نفسها ملزمة بالنضال متحدة حتى تحقق التخلص من المرحلة الاستعمارية ، فكان شعار «الاستقلال» هو العنوان الذي شخص متطلبات تلك الفترة ٠ بيد أن الامور اتخذت مجرى آخر عقب ذلك جعل التحالف الموقت «التاكتيكي» يسفر عن الاختيارات الحقيقية لكل طبقة على حدة ، تلك الاختيارات التي جسمتها عمليا المواقف المختلفة ازاء عديد من القضايا الاساسية ذات الابعاد الاقتصادية والسياسية ، حيث وقفت القوة الاولى عند الحد الفاصل بين المرحلتين ، زاعمة أنها حققت كل شيء ، بينما طالبت الثانية والثالثة ـ بالحاح وتطرف يتفاوتان قوة وضعفا ، بالنسبة للايديولوجية المتبناة من طرف كل من الطبقتين ـ بضرورة الدخول في المرحلة الديمقراطية ، مع الابقاء ، حسب البورجوازية الوطنية ، على المنظور البورجوازي في التسيير والاحتفاظ الى جانب ذلك بالهياكل والمؤسسات الاجتماعية التقليدية ، وذلك على أساس «المشروعية» و «التعادلية» ، وهو الاساس الذي كان انطلاقة خلاف بين البورجوازيين ، لان الطبقة الصغرى (البورجوازية الصغيرة) قيض لها أن تسير الى الحد الاقصى في النضال بهدف استكمال الشوط الى نهايته ٠ وقد بدت فعلا ـ وهذا من طبيعتها ـ أكثر جذرية وثورية نسبيا حين انخرطت في نضال مرير اتسم بالتجريبية ، والبحث اللاهث عن أسلوب ملائم تحل به عمليا ونظريا مسألةالسلطة التي غدت المحور الذي يستقطب الصراع بين القوى الثلاث ٠

ان مسألة السلطة ، والتناقضات الرئيسية بين هذه القوى مجتمعة هي كذلك من العوامل الجوهرية التي ساعدت على ظهور الرواية المغربية ٠ واذا كان معظم مثقفينا ينتمون ماديا وايديولوجيا الى الطبقتين الاخيرتين فذلك مما يسهل علينا تحديد الاتجاهات

والمسارب التى تصب فيها أعمالهم الروائية ، لان النظرة السليمة الى هذه الاعمال لامفر لها ــ فى الظروف الراهنة ــ من تبنــى الطـرح الصحيح لمفهوم هذا الشكل الادبى ، وعلاقته بالاشكالية الاجتماعية ، لان هذه الاخيرة هى وحدها الكفيلة برسم حدود الاطار الواقع الذى تتحرك فيه الرواية المغربية ، من جانب ، وبتحديد مدى وأهمية الدور الذى يلعبه الفرد المبدع للتعبير عن هذه الاشكالية نفسها من جانــب آخر ، من حيث قدرته وأصالته ، ومن حيث تفرده وامكاناته فــى الانخراط فيها وتمثلها تمثلا صحيحا ، أو على العكس من حيث عجزه وتوقفه عن مسايرتها وتفهم حيثياتها وتناقضاتها الخفية المحركـة للصراع • فالرواية ــ كما حاولت أن أوضح ــ لاتعدو كونها تجعل من تجليات الممارسة الاجتماعية على المستوى الادبــى ، انها هى ذاتهـا ممارسة لنوع من النشاط النظرى الابداعى المدعم للسيطرة الفعلية لطبقة اجتماعية أهلتها شروط تاريخية وموضوعية غالبة ، لتتبــوأ ــ خلال فترة محصورة ولاشك ــ مكان القيادة والتسيير ، بالنسبــة للقوة الاولى ، والمعارضة النظامية التابعة ، كما هو واقع الامر بالنسبة للقوة الثانية ، أو المعارضة الجذرية أخيرا بالنسبة للقوة الثالثة •

وفى مجال هذه العلاقة بالضبط (علاقة مجموع البناء الفوقــى بمجموع المشكلات الاجتماعية) يغدو التساؤل عن السبب الذى من اجله لم تثمر الرواية المغربية ــ حين ظهرت فى الستينات ــ مردودا ايجابيا وجديدا • ولماذا لم تساهم فى تنمية وتعميق الوعى الفردى لقطاع معين من الناس ، يفترض فيها أنها تخاطبهم كقراء ومستهلكين لادب ينفرد من غير شك ، بنوعيته وخصوصيته الطبقية ، تســاؤلا غير ذى موضوع • وهذا لايعنى البتة الدعوة الى هجرة هذه الانجازات والغائها كلية بقدر ما نريد أن نشير الى هشاشة وخواء روايتنا ــ فى الظروف الراهنة ــ وكما ظهرت منذ الستينات ، من أى مضمون ثورى جاد ، وهذه الثغرة الكبيرة تنم أصلا عن حقيقة أساسية مفادهــا أن الكاتب الروائى هنا لايزال خلوا من الروح النقدى ، والرؤية الشاملة

لحركة التاريخ • بالعكس ، ان الدوغماتية والتمسك بالتقليد هي العلائم التي تطبع روح الكتابة الروائية عندنا •

واذا كان الروائي ـ كما يقولون ـ لايمكن أن يضرب موعدا الا مع رواية واحدة ، في كل مسيرته الفنية ، فان هذا الموعد لم يتحقق حتى الآن ، لان أيا من كتابنا الروائيين لم ينجز بعد الرواية التي يتجسد فيها فعلا لقاء الروائي بروايته ، ولا طائل هنا من تعداد امثلة حية من أدب الشرق والغرب ، فيكفي ان نشير في عجالة الى ما اضطلعت به الرواية الروسية مثلا قبل سنة ١٩١٧ الحاسمة ، والرواية الامريكية ابتداء من المنتصف الثاني من القرن ١٩ ، على يد امثال جيمس فيمور كوبير ، وملفيل ، وهنري جيمس ، ومارك توين وستيفان كران ، وجاك لوندن ، وفيلا كاتير ، وسكوت فيتزرالد وهمنجواي وفوكنر • لقد تكلفت روايات هؤلاء جميعا بعدة مهام تمثلت في ايقاظ الحس القومي (الرواد لكوبير) ، وعرض تجربة الحرب التي نشبت بين الشمال والجنوب في عهد كروموبل (مدرسة الشجاعة لستيفان كران) ، والمهاجر المنفي في العالم الجديد ، الذي يناضل من أجل ان يحقق مكانه في الارض ، بين العالم القديم الذي تركه وراءه والعالم الجديد (أمريكا) الآخذ في التكوين (صديقتي انطونيا للكاتبة فيلا كاتير) ، وصراع الخير والشر في الحياة الامريكية (كاتسبي الرائع فيتز جرالد) التي قا لعنها اليوت يوما ما : «الخطوة الاولى الى الامام التي خطتها الرواية الامريكية منذ هنري جيمس» وأخيرا (وليس آخر) الموضوع المعقد الكبير الذي عالجه فوكنر بتقنية أكثر تعقيدا وأشد احكاما في رائعته المشهورة «الصخب والعنف» •

كان لدى هؤلاء جميعا ما يقولون ، وكانت رواياتهم هادفة بمعنى من المعاني • لقد أدى الفن الروائي على أيديهم وظيفته الحقيقية والتاريخية (الام لكوركي) (ومعظم الروايات الامريكية التي ظهرت في القرن الماضي وبداية هذا القرن) بنسب متفاوتة في النجاح والفنية • أما الرواية المغربية ، في انطلاقتها الراهنة ، فهي بعيدة عن كل ذلك

وان بقيت مرتبطة بالاشكالية الاجتماعية زاعمة أنها انما تهدف الى عكس هذه الاشكالية على مستوى فنى يحق لنا أن نشك فى صدقه وأصالته ، لان القضية الكبرى اليوم ـ حتى لانسقط من جديد فى المغالطات ـ لم تعد قابلة للتأجيل أكثر من اللازم ، لانها ببساطة صارت المحرك القوى لكثير من طموحات وتصرفات قطاع عريض من ضمير هذه الجماعة ، وعندما يتعلق الامر بقضية الخلاص ، فان الاختيار الصعب يصبح أكثر وضوحا ونبلا ، وهو على الصعيد النظرى ليس بعد أكثر من طرح ـ مجددا ـ امكانية التحرر بكل جدليتها وزخمها ، شريطة أن تتلافى فى المحاولة الجديدة ، حالة تكريس الانكسارات السابقة المفروضة التى أثبتت الاساليب السابقة ازاءها، عقمها وتخلفها ، هذه حقيقة نلتقى حولها جميعا ، فرضت نفسها بمنطق صارم ، قد يرى البعض أن للمسألة وجوها متعددة ، وأنها بالتالى قابلة للنظر من أكثر من زاوية وهذه هى المغالطة الكبرى التى عصفت بالامكانية يوم كانت مجرد مشروع فى المرحلة الاستعمارية . والموقف الصحيح الان ، فى هذه المرحلة الجديدة ، يحتم طرح المسألة من منظور سليم وتجذيرا قويا للرؤية الواقعية ، هذا هو الموقف المطلوب : القتال فى عدة جبهات من أجل الهدف الكبير . وفى المجال الثقافى ، تبدو عملية المجابهة ، وكشف الزيف ضرورة أكثر الحاحا واستعجالا ، ما دامت «آراء الطبقة السائدة هى فى كل العصور الآراء السائدة» . ان علينا أن نتعلم كثيرا من هذه المقولة التى لم تفقد جدتها قط لانها لازالت تمثل جزءا من صيغنا المشتركة . والايديولوجية المنتشرة اليوم تشف عن حقيقة جوهرية يعكسها نوع التضامن المعلن على المستوى المادى والنظرى بين التدرجات الاجتماعية فى البلاد : انها حالة الوعى بالذات ، الوعى الطبقى الخاص بكل قوة اجتماعية على حدة .

وهذا المشروع النظرى ، لايطمح الى أبعد من ابراز أساسيات ذلك الوعى ، وارتباطه بالمضمون الابداعى فى الرواية ، انطلاقا من فرضية قديمة لم يعف عليها الزمان كان هدفها منذ البداية ارجاع

منظومات الفكر وتوليداته الى أصلها الحقيقي ، الواقعي والمادي ، الفرضية التي يتشبث بها عديد من النقاد المحدثين نذكر منهم رولان بارت الذى ليس أثقلهم وزنا على أية حال ، يقول في كتابه المذكور ، ص ٣٢ : «ان الرواية موت ، تجعل من الحياة قدرا ، ومن الذكرى فعلا مجديا ، ومن الديمومة زمنا موجها ودالا ، ولكن هذا التحول لايمكن أن يحدث الا في نظر المجتمع ، فالمجتمع هو الذي يفرض الرواية ، أي مركبا من الرموز ، كتعال وكتاريخ ديمومة ..» .

فهذا المشروع يستهدف ـ ابتداء من هذه المقدمة ـ الاجابة عن سؤال يطرح نفسه بحدة : ماذا أضافت الينا الروايات المنشورة وما مدى مساهمتها (ان كانت قد ساهمت فعلا) في بلورة الوعي الطبقي ؟ يجد مسوغه قبل كل شيء في ضرورة التنبيه الى اهمية اللحظة الحضارية التاريخية التي نمر بها ، وحتى لاتمر في صمت متواطيء ، من الافضل أن نتكلم فيها بصوت مرتفع ، وأن نقرأ فيها أدبنا الموروث قراءة «آثمة» «غير بريئة» (كما يحلو لالتوسير أن يسميها) ، تبعد عنا شبح الاسطورة القديم ، و «خطل الرؤية» الجديد المحتمل .

وما دام الادب القديم (الادب البورجوازى اليوم) متمثلا جزئيا في روايات تصدر عن تفكير هزيل ، مثالي ومحافظ ، هو السائد الان ، فلا أقل من معرفته معرفة دقيقة تكشف حالة الاحتضار التي يعيشها داخليا هذا الادب المتهالك ، المتآكل ، رغم سطوته الظاهرية ، ذلك أن الادب ، كما يقول بارت نفسه : «مثل الفوسفور ، يضيء أكثر حين يحاول الموت» فلتبق هذه الحقيقة ماثلة أمامنا ونحن نعالج هذا الفن من فنون أدبنا الحديث .

يتبع

بعض المراجع المعتمدة في هذه المقدمة :

١ ـ نظرية الرواية لجورج لوكاش ، والرواية التاريخية .
٢ ـ من أجل سوسيولوجيا الرواية ـ للوسيان كولدمان .
٣ ـ الكذب الرومانتيكي والحقيقة الروائية ، لريني جيرار .
٤ ـ درجة الصفر في الكتابة لرولان بارت .
٥ ـ تحول الرواية لالبيريس .

محمد السرغيني

الاشعار الأولى

- ١ -

تتدفق يا نهر الغربة فى أحراج الصمت
يتوقد فيك القربان على دمعات الايقونة
تتوهج شمعات المحراب ومشكاة الزيتونة
تتمزق أصلاب الموتى تنشق الاكفان
يتصعر خد المرآة وتبتل الاجفان
يتعرى الصمت •
يا أحبـــاب
يا رفقاء النكسة مجدولين على الصخرة
يا أسراب الأرجل فى الظلمة تجتر العثرة
يا أغـراب
يلقون على ظهر الزمن العاهر طهر الغيرة
ويمدون يدا غاضبة للثأر
ويناموان على العار •
تسألنى اشجار الغوطة يسألنى الخولى يسألنى ثغر سبأ •
عن راس مقطوع فى الساحة ، والياقة
مرسوم ملكى وشهادة حسن السيرة أو اثبات الفاقة

عمن يقتل فى الفصل الاول والآخر
بالشعر الساخر ...
والنثر الفاخر
عمن يجدل من أشلاء القتلى أزهار الباقة .
ـ يبقى فى الطحلب بعد الموت حمأ
ـ يأتى بعد الجوع ظمأ
وصديد وصدأ .

- ٢ -

الرمل دليل التائه فى الليل
وشهادته والقنديل
والنخل نذور للانصاب
والدمعة والمنديل .
«عجل التوراة» اذا يعلو صهوات الخيل
تزور مصاحف عثمان
تتقاطر أشجار الانساب على ساحة صفين
(بعلك يا بابل عنين)
الهرة تأكل من ثدييها فى عمان
(ما من مغوار يستجدى سلطان النوم بأفيون الاقراص
نازية أفران الجوع وسادية أسوار الاقفاص)
وسواء كانت موتى فى عام أو شهر أو أسبوع
فأنا جثمان
يتفصد منه نهر أو ينبوع
الفطرة يانعة فى الرأس
تتجهم أو تصحو كالطقس

الرمل دماء والنخل الاعصاب
والنفط وسائل في غايات
ما خفقت فيما بين النهرين له رايات .

- ٣ -

قد جئت من المحنة معصوب الجبهة بالشمس
قد جئت وأشعارى تنلى بالهمس
لا مضغة في عظم الظهر ولا قلبا بالعملات الصعبة
(الدفتر خال من كل سوابق)
لا شيء سوى شاه وبيادق
وبنـــادق
تجثو خلف ستار الكعبة
لكن في سبعة أيام كان نظام
منحوتا في ظل اللوحة بالحبر الصيني
أجداث فوق عظام
في سجن القفص الطيني .
انى ما قلت لكم : عراف من يقرأ أجفاره في ضوء سراج الزيت
ونبي من كان قعيد البيت
انى ما قلت لكم : في التربة بركان رصاص
أو في الموت قصاص .
الجرأة في برج الجوزاء الاغبر في أسفار الاحبار
بوم او خنجر
(ما للرب يصادره قيصر
ويولى الادبار) :
من علم أمشاج النشأة والنشأة اولى
أن تقصر للانسان يد طولى ؟
من علم هذا العصر

أن يهزم حتى فى النصر ؟
من علم أرحام العرعار
أن تمتد زعانفها كالدردار ؟
من علم ألياف الاعناق
أن تركع للمطلق حتى يمسخها الاطراق ؟
من علم هذا الشعب العانى
أن ينسخ فى تمثال العرش الجالس ؟
من علم قامات البان
أن تحفر فى هامات الريح قبورا للاشياء ؟
من علم هذا الشاعر ذا الشأن
أن يلبس حرباء الازياء ؟
من علم أبواق الاخبار الرسمية
ان ترسب فى قيعان الامراض العقلية والجسمية ؟

- ٤ -

من أعينكم تبدو لى نيسابور
مما خطت أخفاف النوق
فى صفحات الرمل الخرساء
تبدو لى بصمات الصبر على دمع الخنساء .
(الصبر اذا يضحك أو يبكى تمساح
يعلك أسنانه
افعى أو تفاح
يسحب أقنانه
عراف يأكل من فاكهة الارض ويمشى فى السوق
أمعاء منتنة وقصائد مدح فى كافور) .
يا ساكن نجد لم تشبع نجد من شم عرار
بعد عشيتها . والصبر فرار .

لا نكبة للمطلق
مفطوم اللجة والتيار
يقعي كالكلب أمام الباب المغلق
في برد الدار وفي دفء الديار •
يكفي أن يصدى شريان البان
في آبار النفط وفي صك دون رصيد
يكفي أن تصدى ذرة قمح في حقل صديد
يكفي أن تصدى الذرة
في أعناق الزان
لتذيب حبال الماء الراكد طين الجرة •

- ٥ -

هبني مثل الناس مدانا بالخطوة
فأنا في الجبهة عرف ، في الاصبع خاتم
(اللعنة للتفاحة والخاطىء آدم
في الخطوة أهداف الخطوة) •
كذاب من قال سيوف الانصار بريئة
ملح الدمعة لا زال على خدي علامة
نسغ التفاحة لا زال خطيئة
جالوت على رأس الجند عمامة
وغراب وحمامة •
الوجه الزيتي ـ الحرباء
يتسلق سفح القمة منصوب القامة
الفكرة في الارجل والخطوة في الهامة
الصومعة الحدباء
أعــراس

ومقامع أجراس
النوم شرود في عينى أهل الكهف وفى عينى قطمير نباح
النوم الوردى
مخطوط فى أوراق البردى
يتغوأ وينجب حتى يدرك صحو الليل صباح
حتى يسكت ديك الجن على كل مباح

- ٦ -

ماذا فى الجبة ؟

ـ بضعة أشلاء فى نصف ضريح

ـ (فى موت الآخر موتى)

ـ (فى صوت الآخر صوتى)

من نهر خراسان الى خيبر
تتقاطر ألياف القمع
(مشروع حياة تنقصه الموت)
(الانس أجاج والوحشة كوثر) .
في الجبة عرس الهودج والقبة
وفريسى ومسيح
بثياب العنقاء
وبياض الورقاء .
تنقاد الخطوة للاوحال الصفراء وتكبو الاعين فوق تلال الدمع
ويغيب مدار الالسن فى جلجلة الصوت
ويهب الطوفان على بابل
وعلى ما فيها من عرض زائل
تخضل خدود الاطفال

يبقى جوع الشك طريحا فى ميزان الراحة
يبقى صرح سليمان وحيدا في الواحة
مأسورا فى أسنان االآلة والاقفال •
الاسطورة خيط فى طول الصفصافة
ورجاحة فهم العرافة :
ثار النقع فما خلف غير البصمات
الرمل عفيف الخطو
النخل ولود فى الغيبة والصحو
عنقود الغضب الساطع فى الطيبة مأسور
الوجه الزيتى ملء بالكدمات
طينى القسمات
أنبوب الجرة مكسور
ما عاد الوصل حوارا أو شبه حوار
آه لو ذات سوار لطمتنى ، لو ذات سوار !!

- ٧ -

يا من يولد فى أرحام المأساة
يا ظل الحاضر والمستقبل فى المرآة
يا من يسكنه من الجذب
يا بندول الزمن العذب
ـ علمنا أن نختار الموت
ـ ما يبقى فى المحنة الا أنبوب النافورة
ـ علمنا أن نركب متن سلحفاة الصوت
ـ ان ماتت سنبلة الريح فلا دارت عجلات الناعورة
علمنا أن نعرى ونجوع

علمنا أن يولد من أرحام اليأس يسوع
علمنا أن نشرب من نفط النهرين اذا ما غاض الزاب
علمنا أن نوصد في وجه التدجين الباب
علمنا أن تلبسنا النفس الامارة
علمنا أن نشرب نخب المعصوم الى أن توصد باب الخمارة
علمنا تأويل رؤى أصحاب الاخدود
علمنا تفسير خطايا الكرمة بالعنقود
علمنا عرقية هذا الطين الصافي
علمنا عذرية بشر الحافي .
علمنا أن نحقن مصل التفاحة في نسغ الطينة

ـ من أثمار الاشجار كلوا ودعوا حطب الاشجار

ـ علمنا أن ننهل من اثم الزيتونة والتينة

ـ من كان تقيا منكم فليرجمني بالاحجار .

يا من يولد من أرحام المأساة
يا ظل الحاضر والمستقبل في المرآة
يا من يسكنه من الجذب
يا بندول الزمن العذب .

ـ ٨ ـ

عصر الصاروخ العابر للقارات الخمس
عصر الملك ـ الشمس
عصر تعرض فيه حكم سقراط
للبيع ، بدفع السعر على أقساط
عصر الاقطاب
عصر النخبة والاذناب

عصر مبادلة الاسرى بالعملات الصعبة والرهن
عصر الاحلام المنفوشة كالعهن
(حنط قلبك ، ضعه في علبة سردين
واشحذ تعبيرك بالقات
يتفجر في شريانك نهر من عسل أو بنزين
تتحقق في الحلم الذات) •
لو كانت كلمات الخذلان السبعة في الهودج
عنوانا للعصر السلطاني الرابع
سوق عكاظ للاوس ـ الخزرج
وبلاطا للنسرين ـ العوسج
لاحتد سعار المريخ السابع
وازداد غلاء الاقوات
واكتظت مقبرة الاحياء ـ الاموات •
(الموت الاحدب في عصر الغربة عنوان
الموت الاحدب والغربة صنوان
دقات المعول في جسد الرمس
تتلاشى فيما بين الضجة والهمس) •

- ٩ -

الكلمة كانت أولى في سفر التكوين
تتخطى أقفاص التلوين
تتخطى الغيبة والوعي
تتخطى أفراح الميلاد وأتراح النعي •
(تعميد الشاعر والشعر
بالعذرية محدود السعر)
الكلمة اقوى من أن تسقط في فخ التفاح
الكلمة شعر في وجدان المصلوب وصاب في حلق السفاح

الكلمة فى القفل وفى المفتاح
هاروت الهارب من وجه الجنة قد خط بها «السبع الالواح»
(مهما رحبت واحات الحبر
فمساحتها كالشبر) •
الكلمة بعد الشهر السادس حرباء
جربـــاء
نبرات معجمة بالبذلة والياقة والقفاز
ناعمة كالفرو
عمران لها كالسرو
لكن تزحف بالسبحة والجبة والعكاز •
(بوذا اذ يأتى من خلف الواقع فى الشهر السابع
عرافا لايسكنه شيطان الفعل
ليس سوى ذرات غبار من عرق الشارع
ليس سوى درويش تلبسه الخرقة أو يخلعه النعل) •

- ١٠ -

يا ضارب أوتاد الخيبة فى رمل التوراة
يا حاطب نار المد
يا بابل فى طوفان السد
ماذا بعد المأساة ؟
أجناد فى علب الليل
أشباه رجال حول المائدة الخضراء
فى مضمار سباق الخيل
ترهن حتى الخوذة والرشاش
(هل تصفو بالمجهر عين الخشاش
حتى تسبر أغوار الجولان العذراء) ؟
عدسات العين الخرساء

ملكات الحيرة في صفين
لم ينجبن سوى رابعة العدوية والخنساء
لم يحملن المضغة الا في حطين •
من حبات بهار أو ملح ترسب في قعر الشبكة
يستيقظ في الساكن دولاب الحركة •
الآكل من تفاح الجنة
يرمي يوسف في الجب
يلبس عرف الديك على فرو الدب
يذكي نار البدعة والسنة •
الآكل من تفاح الجنة بالصدفة
ينسى فيها أنسابه
يستجدي سابلة الشارع ألقابه
من خلف نقاب الشرفة •
يا أحبــاب
يا رفقاء النكسة مجدولين على الصخرة
يا أسراب الارجل في الظلمة تجتر العثرة
يا أغــراب
يلقون على ظهر الزمن العاهر طهر الغيرة
ويمدون يدا غاضبة للثار
وينامون على العار :
ان شح الرمل الذابل أو كاد
فحوافر أقدامي تختار جروح الارض وسادة
وقــلادة
ـ الرمل الذابل زاد ـ •
قد جاءت أزمنة بعد الشهر السادس
بالحر القائظ والبرد القارس
بل جاء زمن
يحمل عمرا نوحيا في هيكل

من كلس نحاس أو نيكل •
(لما يمضي في أعقاب الريح وطن
ولعاب الجثة يطفو في نهر مناحة
يطوى أيوب على الساقين المقطوعين جناحه
ينمو في جرح القلب وطن)
الارض الموؤودة في طول الزانة
غربان سود ورمادية
في زنبقة العانة •
(أشعار القرن العشرين حدادية)
قلنا كوني يا نار النفط القاني بردا ومآدب تشريف أو تكليف
كوني بردا على الارض الموؤودة في نعل الحوذي
وحليق اللحية والشارب والبوذي
يعروها الطلق فتاتي ببطاقة تعريف
بيضاء الغرة
على الهرة
تترفع عن أكل الثديين
فيما بين النقطة والخط وفي برج الجديين •
يا أحبـاب
اصفر الاغراء
في ديوانكم الابيض ، في باقات الاطراء
يا اغـراب
يا رفقاء النكسة جاءت أعراض الاسراء •

محمد السرغيني

سانت أندير (اسبانيا) ١٧ ـ ٧ ـ ١٩٦٧

محمد الواقف

ملاحظات حول الممارسة النقدية

الهجمة الشرسة والتصحيح :

لا أجد تدخلي هذا خارجا عن موضوع هذه النـدوة (*) : انـه يتركز أساسا ، حول الممارسة النقدية ، وحول بعض المفاهيم الخاطئة التي تنطوي تحتها • وأنا أعتبر ممارستنا النقدية عملا يدخل فـي اطار الفكر العلمي ، لانها تتبنى ، عمليا ، مفاهيم هذا العلم ، ولانها تضع ، كأفق نوعي لها ، مهمة تغيير اللغة النقدية السائدة في سبيل لغة نقدية تعلن عن هويتها الى جانب طموحات الجماهير الواسعـة ، وبما أنني طرف في هذه الممارسة ، فانني أفهم الملاحظات التالية كنقد ذاتي موجه الى والى زملائي • طبعا انني لن أحيط هنا بجميع المفاهيم الخاطئة ، فالمسألة تتطلب عملا جماعيا ولا يمكن ، بحال ، أن تقتصر على الجهود الفردية ، ولكن ، من المطلوب الان أن نعتبر هذا التدخل مدخلا لفتح النقاش عى اطار الممارسة المذكورة لا غير • مـن هنـا أستخلص ، بطريقة شخصية ، مشروعية مثل هذا النقـاش ، كمـا أستخلص المشروعية ذاتها **من الظروف الصعبة ، والخطيرة ، التـي تجتازها الثقافة العلمية في بلادنا بعد الهجمة الشرسـة للثقافـة التراثية الرجعية** التي تحميها السلطة ، وتساندها ، ماديا ومعنويـا وتنظيميا ، بشتى الاساليب • ان ما ينبغي أن يكون حاضـرا فـي

* قدم هذا التدخل في ندوة فرع (اتحاد الكتاب) بالدار البيضاء حول (المثقف العربي بين الفكر المثالي والفكر العلمي) •

اعتبارنا ، دائما ، هو أننا لاننشيء لغتنا النقدية العلمية بمعزل عن ظروف الجزر السياسي التي تعرفها الحركة الديموقراطية في المغرب ، الان • وهذا هو ، بالضبط ، ما يحملنا على التفكير جديا في موقعنا الثقافي ، ليس لطعن مبادىء ممارستنا النقدية ، وانجازاتها الهامة ، من الخلف ، انما لطرح مفاهيمها الخاطئة ، واستبقاء العناصر الصحيحة التي تساعدنا ، وحدها ، على الاستفادة من جهود المثقفين الديموقراطيين بهدف تمتين ثقافتنا الديموقراطية ، وخدمتها في هذه المرحلة بالذات ، وأيضا بهدف توجيهها ، في سياق الممارسة العملية ، لصالح التطلعات العميقة للجماهير المناضلة •

سيقتصر تدخلي على وضع النقاط التالية موضع نقاش توضيحي :

١ ـ وضعية الفكر البرجوازي الصغير ، نظريا •

٢ ـ التحليل الملموس ، وأزمة المعرفة الملموسة •

٣ ـ التصور الميكانيكي للعلاقة فيما بين الفكر والمادة •

٤ ـ استراتيجية للكتابة النقدية •

٥ ـ استراتيجية للعلاقات بيننا وبين المثقفين الديموقراطيين•

وأستسمحكم ، في البداية ، اذا كان هذا التدخل موجزا (فهو يمس الاسئلة فقط) أو غامضا من حيث العلاقات بين أجزائه • لقد قلت قبل قليل ، ان هذا مجهود فردي ، ولكل مجهود فردي ، كما نعلم ، أخطاؤه وعثراته • ويكفي أن تكون النقاط التالية موضع نقاش جدي حتى تكون ، بالتالي ، قد حققت غايتها •

الثقافة السائدة والثقافة المستلبة :

في صفحة ٤٤ من (الاعمال المختارة لماركس وأنجلز ـ طبعة موسكو) يقرر الكاتبان أن الثقافة السائدة ، داخل مجتمع ما ، هي

ثقافة الطبقة السائدة ، ومعنى ذلك ، في التحليل العلمى ، أن هذه الثقافة السائدة تصبح هى «لغة» التعامل الايديولوجية فيما بين الطبقات المتواجدة داخل مجتمع معين : انها عنصر ربط ، فى جانب ، وعنصر سيادة فى جانب آخر • عنصر ربط ، من حيث أن الثقافة السائدة تمكن وضعا ما (وضع استغلال ، مثلا) من أن يعيد انتاج نفسه على مستوى البنية الفوقية لتأييد علاقاته فى البنية التحتية (علاقات الانتاج) وعنصر سيادة ، من حيث أن هذه الثقافة السائدة تمارس عملا تكييفيا داخل «الثقافات» الاخرى (الثقافة النقيض ، مثلا) لتأييد تبعيتها لها : وضعها وضعا ذيليا دائما • ان سيادة ثقافة ما ، يعني ، أيضا ، سيادة طبقة ما سيادة سياسية • من هنا يمكننا أن نستنتج أن «الثقافة البروليتارية» و «الثقافة البرجوازية الصغيرة» (اذا كان للبورجوازى الصغير ثقافة متميزة) انما توجدان فى حالة تبعية للثقافة البرجوازية فى حالة سيادة البرجوازية كطبقة ، سياسيا • ان هذا التحليل الذى دفع (لينين) الى أن يرى أن «الثقافة البروليتارية» ، فى واقع سيادة البرجوازية ، لا تكون لها صفة الثقافة وانما تكون مجموعة عناصر «ثقافية» لا غير : لا تكون بنية قائمة الذات ، لان تكوين البنية الثقافية الطبقية لايحدث الا فى حالة سيادة الطبقة المعنية سيادة سياسية • بعبارة أخرى : عندما نقول ، على سبيل المثال لا الحصر ، انهم لايزالون ، ثقافيا ، فى وضع تبعية للثقافة البرجوازية التى تعيد انتاج نفسها فى عدم وعيهم : انهم يساهمون فى اعادة انتاج البنى الفوقية الاستغلالية للثقافةالبرجوازية واذا دفعنا هذا الاستنتاج الى حدوده القصوى قلنا : انه ليس هنالك، فى واقع سيادة البرجوازية ، سوى ثقافة متكاملة واحدة هى الثقافة البرجوازية ، وأن باقى «العناصر الثقافية» انما توجد مشتتة خاضعة للهيمنة الثقافية البرجوازية ، أى خاضعة لتسرب محتوياتها وأشكالها الايديولوجية :

هذا التحليل يقودنا الى التساؤل التالى :

لماذا نعتبر نصا ما، فى ممارستنا النقدية، يعبر عن «ايديولوجية صافية» ؟

بعبارة أخرى : لماذا نفكر فى أن نصا ما يمكن أن تكون ايديولوجيته هى ايديولوجية البرجوازية الصغيرة ، مع ان البرجوازية الصغيرة ليست هى الطبقة السائدة سياسيا ؟

التاريخ كميتافيزياء :

يقول (لينين) محذرا من «المرض الطفولى» : **ينبغى ألا نرفع التاريخ الى مرتبة الميتافيزياء** ، ويقصد (لينين) من ذلك أننا يجب أن نستوعب الحقائق استيعابا تاريخيا • ان عكس الاستيعاب التاريخى للتاريخ هو استيعابه كمطلقات : ساكنة وغير متحركة ، أى كشىء لايخضع للديالكتيك الذى هو منطق التاريخ ، حسب التحليل العلمى ، ونحن فى ممارستنا النقدية لانفعل شيئا سوى أن نقوم بالاخطاء التى نبهنا اليها (لينين) • فبالنسبة للتحليل الطبقى للبرجوازية الصغيرة وايديولوجيتها «الوسطية» ، أخذنا مجموعة الصفات التى استخلصها ماركس ، مثلا ، من سلوك هذه الطبقة فى فترة محددة تاريخيا ، وسحبناها على كل برجوازية صغيرة ، فى كل عصر وفى كل تاريخ • ماذا يعنى هذا ؟ اننا نرفع التاريخ الى مرتبة الميتافيزياء • اننا نتصور ، تجنبا للبحث وصعوبة العمل النقدى الواعى ، أن البرجوازية الصغيرة (نواة) هيجيلية ، اذا أزحنا عنها بعض قشورها ظهر (جوهرها) واضحا «كما هو» : جوهرها التاريخى • ان أى تحليل لاينظر الى البرجوازية الصغيرة داخل علاقات الانتاج ، فى فترة محددة ، (مثلا ، فى بلادنا ، فى هذه الفترة بالذات) لايمكن أن يكون الا تحليلا خاطئا ومضللا ، يتعمد التجريد لكى يخفى جهله بالواقع الملموس • معرفة هذا الواقع الملموس ، «فى التحليل الاخير» لاتتحقق باستذكار معلومات جاهزة ، وانما بالاهتداء بالنظرية الثورية

فى ممارسة بحث نقدى يضع البرجوازية الصغيرة ، كواقع ، وضعا تاريخيا واقتصاديا ، داخل بنية علاقات الانتاج المثلثة • «ومن أجل ازالة العمى الذى ينتشر الى درجة خطيرة فى حزبنا (يقول ماوتسى تونغ ، ١٩٤٤) ، يجب **التشجيع على التفكير واجادة أسلوب التحليل والتعود على التحليل** • ان هذه العادة تنقص حزبنا شديد النقص» • «وفى سبيل القيام بذلك (يقول أيضا ، ١٩٤١) يجب أولا توجيه الابصار نحو الاسفل ، لا رفع الرؤوس والشخوص بالابصار نحو السماء • فما لم يكن المرء مصمما وراغبا فى توجيه بصره نحو الاسفل فلن يكون بمقدوره أن يتفهم أمور الصين تفهما حقيقيا» • «ولا يمكن أن توجد قيادة صالحة بالفعل بدون معرفة ملموسة حقيقية بالاحوال الواقعية لمختلف الطبقات الاجتماعية» • (الاعمال المختارة) •

•

الانعكاس والتضعيف :

انما نرتب على خطأ اعتبار طبقة ما «طبقة مطلقة» خطأ آخر هو اعتبار فكرها تكرارا وتضعيفا ميكانيكيا لوضعيتها المادية • ان الموقع الوسطى ، للبرجوازية الصغيرة فى علاقات الانتاج يدفعنا الى أن نتصور فكرها أيضا كنتيجة لهذا الموقع الوسطى • ان مثل هذا التحليل ليس ديالكتيكيا ، لانه يهمل العلاقة الجدلية بين الوضعية المادية لطبقة ما وبين بنيتها الفوقية ، ويبسطها الى حدود المعادلة • **ان المادية الفجة تضع الوعى والمادة ، والفكر والكائن ، كمتشابهين ، بمعنى أنها تقلف جانبا وببساطة كل ما هو «غير مادى» • ومن هناك أيضا فانها تمحو بالفعل مشكلة العلاقة بين الذات والموضوع ، باعتبار أن الموضوع وحده هو المعترف به** • فلو قام افتراضنا على أساس اختصار المسافة النوعية فيما بين فكر الطبقة ووضعيتها فى علاقات الانتاج لما فهمنا ، قطعا ، لماذا تنتج طبقة ما ايديولوجيتها • ان التحليل الصحيح لمسائل هذه العلاقة ينبغى أن ينطلق من التحليلات التالية :

أ ـ ان الفكر انعكاس للمادة المستقلة عنا ، ولكنه انعكاس نوعى ، ديالكتيكى • (ضد ميكانيكى) •

ب ـ ان الفكر يعكس المادة كبنيات ذهنية توجد داخل علاقات متميزة (انه لايعكس وضعية ثابتة ، وانما حركتها فى مجموع علاقات الانتاج فى فترة محددة) •

جـ ـ ان الايديولوجية هى البنية الوسطية فيما بين الفكر والمادة ، وهى لهذا الموقع ، تقوم بعملين ، على «صعيدين» مختلفين :

١ ـ انها تخلق المسافة فيما بين الفكر ، كتحليل ، وبين المنطلق الذاتى للطبقة (العنصر الذاتى للايديولوجية) • ٢ ـ انها «تعيد انتاج» خصائص الطبقة للابقاء عليها ولمنع ذوبانها فى الصراع الطبقى (الذى هو ، أيضاً ، صراع ايديولوجى ، صراع بين ايديولوجيات متعددة) •

ولذلك يمكننا أن نستنتج أن خصائص فكر طبقى ما ليست هى ذاتها خصائص الوضعية المادية للطبقة المعنية (حتى لانقع فى التعميم ، فان الطبقة المعنية هنا ، هى البرجوازية الصغيرة ، فقط • ان الاستنتاج سيختلف حتما اذا كان التحليل يشمل غير الطبقة المذكورة) وإنما هى حركة هذه الخصائص داخل بنية انتاج ملموسة• وما دامت البرجوازية الصغيرة لاتمارس علاقات انتاج واحدة (انها مجموعة فئات ، تقوم بدور انتاجى مختلف ، ويتضاعف اختلافه بحسب «مكان» هذا الدور من بنية الانتاج الاجتماعية) فانه من اللازم التفكير ، استخلاصا ، فى أن خصائص **فكر البرجوازية الصغيرة هى مجموع الصفات المتناقضة التى تنتج من ممارسات الفئات الانتاجية لهذه الطبقة** ، تحت شروط زمان ما ، ومكان ما • غير أنه من الضرورى التنبيه الى أن هذه (الصفات المتناقضة) لاتعمل كخصائص معزولة ، تنتج نفسها الى الابد ، وانما يقع توطينها داخل الاستعمال الثقافى السائد : أى داخل الثقافة الطبقية السائدة ، فتغدو مساهمة ، بدورها ، فى انتاج هذه الثقافة وهكذا •

استراتيجية للكتابة النقدية :

يحتاج عملنا النقدى فى الظروف الراهنة ، وانطلاقا منها ، الى تحديد استراتيجية تضع هذا العمل فى مكانه الصحيح من التبعات والمسؤوليات التى ننوى انجازها • ان تحديد هذه الاستراتيجية لايمكن أن يتم الا بناء على تصور واضح للمهام المطروحة علينا فى هذه المرحلة بالذات • اننا بحاجة الى مراجعة تصحيحية لسلوكنا النقدى من أجل الوصول الى هذا التصور الواضح ، ولعل فى مقدمة المسائل التى ينبغى أن نصححها مجموعة المفاهيم التى تملى علينا ادراك هذا الواقع ادراكا يتسم بالسطحية والتبسيط والعقم • لقد بدأنا ندرك الان ، أنه ليس من الضرورى أن نظل مجترين لنفس التصورات عن الممارسة النقدية ، عن النقد كممارسة ، **وأن الممكن الان هو أن ننتقل الى مرحلة أخرى تضع العمل الادبى فى مقام البنية الايديولوجية ، أى تحاسبه فى اطار الصلة الجدلية بين المضمون وبنيته الدالة • ان النص الادبى ، بمختلف أنواعه ، لايعبر عن شىء ، كما تعودنا أن نسمع ، وانما ينتج بنية ذهنية قائمة الذات والنوع : انه وجود مادى مكتمل ، يفرض علينا أن نتعامل معه ، تماما مثلما نتعامل مع العملة النقدية ، كواقع رمزى :** انه ناتج واقع ، ولكنه واقع مختلف عن مدلوله ، واقع تنشئه الكتابة • لقد أدرك (ماركس) فى شبابه أن «الاستغلال» و «الاستلاب» هما سمتا المجتمع الرأسمالى ، ولكنه اكتشف فيما بعد أن الاستنتاج كان خاطئا يغلب عليه التصور الاخلاقى ، وأن مضمون العلاقات الرأسمالية انما يكمن فى بنيتها الاساسية : فى انتاج الفائدة ، ونستطيع نحن أن نستنتج ، فى ممارستنا الخاصة ، الممارسة النقدية للكتابة ، أن مضمون النص المضمون الحقيقى ، انما يوجد فى بنية النص ذاتها ، وأن التركيز على المضمون وحده ، أى خارج بنيته النوعية ، لن يقودنا الا الى تحليلات سطحية ، مكررة ، قابلة لان تصبح ، آليا ، مجموعة من التعميمات يمكن سحبها بسهولة بالغة ، غير علمية ، على نصوص ذات بنيات ايديولوجية مختلفة • ان الافراط فى استعمال هذه التعميمات ، اذا

كان يتيح لنا فرصة استعمال منهج وطرح تصورات ، فانه لايساعدنا اطلاقا ، على فهم النص ذاته • التحليل الماركسي يعلمنا ، باختصار، أنه ليس هنالك واقع واحد ، وانما هنالك واقعان : الواقع اليومي ، المتصف بالحالية ، والقابل للمشاهدة والاستيعاب الايديولوجي ، والواقع «الآخر» المختفي ، والمحرك للواقع الاول تحريكا أساسيا : واقع علاقات الانتاج • ان الاهتمام بالمضمون وحده ، مضمون النص، انما هو اهتمام شبيه بالاهتمام بالواقع الاول ، واقع السطح والايديولوجية • أما الاهتمام ببنية النص فهو الذي يقودنا الى معرفة واقعه الاساسي ، واقع علاقاته المختفية : علاقة المعنى بالجهاز المادى الذي ينتجه (اللغة) •

السلبي والايجابي

وفي هذا الاطار ، فاننا نملك بالفعل الرغبة في العمل في خدمة المهام الراهنة لتطورنا السياسي الحالي ، غير أنه أصبح من اللازم علينا أيضا أن نستوعب هذا العمل في سبيل الحقيقة ، والحقيقة وحدها ثورية ، وليس في سبيل خدمة الخطأ والتجريد والتعميم • ان أبسط شروط الديالكتيك تنقصنا في ممارستنا النقدية : فلقد تعودنا أن نرى نصا ما نسقا من المعاني ، يعبر ، في سياق متشابه ، عن طبيعة طبقية واحدة ، تأتي كتحصيل حاصل لما نتصور أنه الواقع • **والحال أن النص ، كالواقع ذاته، حسب التحليل العلمي ، هو «مكان» تناقضات • انه يعكس تناقضات الواقع ذاتها ، كما يعكس ، أيضا ، التناقضات المستقرة في بنيته الخاصة** • ومعنى ذلك ، لمزيد من التحديد ، أن بنية النص هي أيضا بنية ديالكتيكية ، مثلما أن علاقات الواقع ، الواقع اليومي والتاريخي ، هي علاقات ديالكيتيكية • ولنا في تحليلات (لينين) مثلا على هذه الرؤية الصحيحة: ففي المقالات التي كتبها عن (تولستوى) ، بمناسبة مرور ثمانين سنة على ميلاده ، اكتشف (لينين) أن رؤية (تولستوى) للواقع الروسي قبل ثورة ١٩٠٥ لم تكن ساكنة ، وأنها كانت تعكس تناقض «موقفه» على النحو التالي :

أ ـ التناقض بين الفنان المتحرر ، والمسيحى المتعصب •

ب ـ التناقض بين الاحتجاج الصادق ، و «التولستوى» الذى يضرب صدره ويعمل على أن يصلح نفسه بطريقة أخلاقية •

جـ ـ التناقض بين النقد الواضح للاستغلال الرأسمالى ، وبين تبنى اللاعنف •

د ـ التناقض بين الواقعية المستنيرة ، والكاشفة للاقنعة ، وبين الدين والرهبانية •

هذا مثل فحسب • ولكن ، ماذا تفعل فى ممارستنا النقدية ؟

اننا نقول بالتناقض نظريا ، ولكن تحليلاتنا لاتراه فى النص ، تنساه وتتجاهله وتكتبه • وبدلا من ذلك ، نلجأ الى توليد المعانى الفرعية ، من معنى أصلى نتوهمه • وبدلا من ذلك ، نلجأ الى توليد المعانى الفرعية ، من معنى أصلى نتوهمه ، فتكون النتيجة سيلا من الثرثرة والهذر اللفظى ، محورهما الاساسى (نواة هيجلية) مطلقة • باختصار ، ان ممارستنا النقدية فى حاجة الى نقد أيضا ، ولكنها فى حاجة الى نقد يحدد استراتيجيتها فى اطار المرتكزين الاساسيين اللذين حددناهما سابقا :

١ ـ اعتبار النص بنية ايديولوجية ترتبط بالواقع الذى أنتجها ارتباطا ديالكتيكيا لاتضعيفيا •

٢ ـ النظر الى النص باعتباره أيضا «مكان» تناقضات وليس مكان مطلقات •

الممارسة النقدية كعمل ثقافى

ان استراتيجيتنا تفرض علينا فى مستوى آخر ، ضبط الاهداف التى ينبغى النضال ضدها أو لصالحها ، كما تدعونا الى تحديد تاكتيك مرحلى للتعامل مع المثقفين الذين لاينتمون عمليا الى

الاحزاب والمنظمات البرجوازية • فبالنسبة للاهداف يبدو **انه من اللازم توجيه ممارستنا النقدية للنضال ضد الفكر المثالى ، وفضح الفكر الليبرالى ، والاكاديمي المغلق** ، كما أنه من الضرورى توجيه النقد الذاتى لكل أشكال الانحرافات الطفولية فى الفكر اليسارى ، مع اظهار ميزات الفكر الوطنى الديموقراطى والوقوف بكل صرامة أمام سلبياته • ويجب أن نتحاشى كل دخول فى مهاترات غير مجدية ضد الفكر الدينى أو ملحقاته ، أو ضد الفكر الاجتماعى التكنوقراطى، ان ظروف المرحلة الراهنة تدعونا الى التفكير مليا فى طرق تعاملنا مع المثقفين الذين لاينتمون عمليا الى الاحزاب أو التنظيمات البرجوازية أو السلطوية ، من أجل وضع تاكتيك لهذا التعامل خاضع لاستراتيجيتنا النقدية العامة • ان المثقفين الذين ينتمون فى معظمهم الى البرجوازية الصغيرة أو الى الطبقات الكادحة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يربوا مثقفى البروليناريا الخلص ، ولهذا فانه يغدو من الضرورى تصنيفهم حسب مواقفهم من المهام الراهنة المطروحة فى اطار عملنا النقدى • وينبغى أن نضع فى اعتبارنا دائما أن الاحزاب السياسية البرجوازية تستميت فى منافستنا على كسب المثقفين الديموقراطيين وأن الرجعية تعمد الى كل الطرق الممكنة لشراء المثقفين وتسميم عقولهم ، خصوصا فى هذه الفترة بالذات التى تشتد فيها الحملة ضد الفكر العلمى تحت الشعارات التى نعرفها جيدا • هذه الحملة تضعنا الان أمام حقيقة هامة : وهى أننا لم نحدد بعد الافق الذى ينبغى أن نستضىء به • اننا لم نسأل بعد أنفسنا عن الايجابيات ، فى فكر المثقفين البرجوازيين الصغار ، التى ينبغى مساندتها ودفعها الى الامام ، تطويرا وخلقا، واكتفينا برصد السلبيات رصدا تغلب عليه المبالغا والتصورات اللاديالكتيكية • فى سنة ١٩٣٩ كان ماوتسى تونغ يصنف المثقفين الى الاصناف التالية :

١ ــ المثقفون الذين يرغبون فى مقاومة اليابان ، ويتمتعون نسبيا بالاخلاص والقدرة على تحمل المشاق والعمل المجد•

٢ ــ المثقفون الذين لهم مؤهلات العضوية فى الحزب •

٣ ـ المثقفون الذين ليسوا أهلا لهذه العضوية أو لايرغبون فى الانضمام الى الحزب ، ولكن الذين ينبغى أن نقيم معهم علاقات طيبة ، ونعمل معهم سويا مع توجيههم ٠
٤ ـ المثقفون الذين يرسلهم العدو والاحزاب السياسية البرجوازية ٠

ثم يضيف (ماوتسي تونغ) قائلا : «الا أنه لاينبغى أن نترك الريبة حيال المثقفين المخلصين نسبيا تعبث فى نفوسنا» ٠ واذا شئتم العودة الى النص ،تجدون الحاحا غريبا على كلمة «نسبيا» ٠ وفى ختام القرار الذى وضعه (ماوتسي تونغ) نيابة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى نقرأ ما يلى :

«أما تجاه تلك الاعداد الكبيرة من المثقفين خارج الحزب الذين يعطفون علينا ، **فمن اللازم أن نقيم معهم صلات مناسبة ، وأن ننظمهم فى النضال العظيم من أجل مقاومة اليابان ومن أجل الديموقراطية وفى الحركة الثقافية**» ٠

ان الاهتداء بهذا التصنيف العملى ضرورة ملحة ، بالنسبة لنا، ليس لتكراره أو تضعيفه على حالتنا ، ولكن من أجل خلق استراتيجية مناسبة لوضعية المثقفين الديموقراطيين فى بلادنا ، تهدف أساسا الى خدمة التوجهات الديموقراطية لديهم ، ولا نطلب منهم أكثر مما يستطيعون القيام به ٠ ان مثل هذه الاستراتيجية هى الكفيلة وحدها باخراجنا من عزلة (المعسكر الواحد) الذى يناضل ضد أشتات من المعسكرات ، فى مرحلة تحتاج فيها الى كثير من المساندة وكثير من الدعم من طرف المثقفين الديموقراطيين ٠ هذا على مستوى الاستراتيجية ٠

الفرز التاكتيكى

أما على مستوى التاكتيك فاننا مطالبون بالاستفادة من تجربة (لينين) سنة ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ ، قبل ظهور البلشفية ، كذلك نحن

مطالبون بالاستفادة من تحليله الهام فى (مرض اليسارية الطفولى) ، للنماذج الفئوية التى تتوسط البروليتاريا وأشباهها ولاسلوب التعامل الصحيح معها • يقول : «لاتكون الرأسمالية رأسمالية اذا لم تكن البروليتاريا «الصرف» محاطة بجمهرة من النماذج المتنوعة تنوعا خارقا ، والمتوسطة بين البروليتاريا وأشباه البروليتاريا ، وبين أشباه البروليتاريا والفلاح الصغير والفلاح المتوسط ، وهكذا دواليك ، واذا لم تكن البروليتاريا نفسها منقسمة فى داخلها الى فئات أكثر تطورا ، أو أقل تطورا ، ومنقسمة حسب مناطق الاستيطان والمهنة ، والدين أحيانا الخ • ومن كل هذا تنشأ ضرورة مطلقة ، ضرورة لجوء طليعة البروليتاريا الى المناورة والتوافق والمساومات مع مختلف فئات البروليتاريين • وجوهر القضية كله هو فى معرفة كيفية تطبيق هذا التاكتيك ، لاغراض الصعود بالمستوى العام لوعى البروليتاريا وثوريتها وقدرتها على النضال والانتصار ، لا النزول بذلك المستوى (•••) ان الديموقراطيين البرجوازيين الصغار يتأرجحون ، ولا مناص ، بين البرجوازية والبروليتاريا ، بين الديموقراطية البرجوازية والنظام السوفييتى ، بين الاصلاحية والثورية ، بين حب العمال والخوف من الديكتاتورية البروليتارية وهلم جرا • **يجب أن يكون التاكتيك الصحيح ، (•••) الاستفادة من هذه التأرجحات (وليس اهمالها ـ بتصرف) ، وهذه الاستفادة تستلزم التساهلات مع تلك العناصر التى تنعطف نحو البروليتاريا و (•••) تستلزم الى جانب ذلك النضال ضد اولئك الذين ينعطفون نحو البرجوازية» (ص ٧٨ ـ ٧٩ ، الطبعة العربية)** • انه ليس يهمنا فى هذا التحليل جانبه النظرى وانما جانبه العملى : أى الطريقة التى يفرز بها (لينين) بشكل عملى الفئات الاجتماعية الوسطية ، من أجل تحديد تاكتيك صحيح يستفيد من الاوضاع التاريخية لتلك الفئات ، ويساهم مع ذلك فى تغيير سلوكها ودفعها للعمل فى اطار الاستراتيجية العامة للنضال • بعبارة أخرى ، يدمجها فى القوى الاستراتيجية لهذا النضال • وبما أننا نريد انجاز مهام المرحلة الوطنية الديموقراطية ، فان تاكتيك

ممارستنا النقدية ينبغي أن يغلب عليه الطابع التوجيهي لا طابع النقد العنيف الذي يكبت الايجابيات ، يصمت عنها ، لحساب السلبيات ، والطابع التوجيهي هو وحده الذي يستطيع ، في حدود ظروف محددة، ظروف التهيؤ للانعطاف ، أن يحول الاستفادة المؤقتة الى استفادة استراتيجية ، يحول التاكتيك الى ممارسة تخدم الافق العام لثقافتنا العلمية والديموقراطية و «ان جميع الآراء البرنامجية والتاكتيكية ، تفحص في مجرى عمل الجماهير» .

لن أختم هذا التدخل دون أن أشكركم .

محمد الواقف

تنبيـــه

تلفت المجلة نظر قرائها الكرام الى أن الافكار التي ترد فيها قابلة للمناقشة ، وهي ترحب بكل تعليق او رد يصلها في الموضوع

احمد المجاطى

حوار
مع مدينة الدار البيضاء

لماذا تدور الحروف التي تلفظ اسمك ، في قبضة الريح ، قبعة
حين أذكر احباب قلبى ، أنثر اسماءهم واحدا واحدا
حين أذكر أحباب قلبي، هل أنت سائحة يستبـي الرمل احلامـك البارسية ؟

ها أنذا أمسك الريح ،
ازرع في كل زاوية منك ذاكرة ،
ألمح اسمك ينفر ما بين أسمائهم كالصهيل ،
ها أنا أمسك الريح ، أنسج من صدا القيد رايه ،
ومن صدا القيد مقبرة للحروف ، ومحبرة للسيوف
وقيثارة للشجن ،
وأنت على شرعة الصمت ممدودة بين قيدى وبينى
وبين حدود الوطن
أسامر فيك رياح الاحبه
أسامر أمطارهم في المنافى
وأشلاءهم في بطون الفيافى

وأنت على شرعة الصمت ، أغمضت عينيك قبل الصلاة ،
وقبل مباشرة الدفن ، ثم التقينا على حافة النهر ،
وجهك لافتة فى الشوارع
صوتك كان الاشارة
واجهت ثانية مصرعى
كان بينى وبين رماة الطوارق صمتك ،
حين اكتشفتك خمارة ، فاستدار بى الكاس
أبحرت ، أبحرت ،
حتى افتقدتك ،
كان القطار يفتت وجهى ،
يرسم فى كل شق هويه
تساءلت ، هل أنت عاشقتى ؟
لم لم تزرعينى فى رحم الابديه ؟
أو تزرعينى بين الترائب والصلب ؟
ظلت عيونك شاخصة ،
كنت حبلى
احتوتنى الزلازل
أبصرت أحباب قلبى
أبصرت أحباب قلبى قتلى •
وها أقبل الصيف يطرق بالشمس والدم أبوابك المقفله

وها اقبل الصيف انتعشت في الكهوف الجنائز
والتحمت بالجنائز انسجة الراية المشعله
فماذا تقول الخناجر ،
هل سقط الرأس ، وارتفعت فوق أعمدة القصر أعمدة المقصله ؟
بيوتك ترحل من ذكرياتى
أمد سواد عيونى جسرا
وأنت على الضفة الالف مبحرة فى السعال
وفى عثرات الرجال
ومبحرة يسقط النهر فيك
وتسقط كل البنادق قتلى
وتدخل كل الدواوين فى زمن الصمت والدمعة المالحه
فيا أخت غرناطة الجوع ، شقى قميصى ،
امسحيه على جبل الريف ،
واستخلصى من بقاياى شيئا ، سوى الخمر والشهوة النابحه •

كتب وردت على المجلة

- أبحاث في المسرح المغربي
  د. حسن المنيعي
- أصفار خارج اليمين واليسار ـ شعر
  هناوي أحمد
- أشعار للناس الطيبين ـ شعر
  هناوي أحمد
  ادريس المليانى
  الصغير المسكيني الصغير
- فتيات استريبتيز ـ شعر
  هناوي أحمد
- اكسير الحياة ـ رواية
  د. م. ع. الحبابي
- وجه متوهج عبر امتداد الزمن ـ شعر
  محمد بنيس
- الشوق للابحار ـ شعر
  عيبة الحمري
- كرم من فلسطين ـ شعر
  محمود صبح
- دون كيخوتي في القرن العشرين
  ترجمة محمود صبح وخوليو كورتيس
- قلب في العراء ـ شعر
  غرباوي أحمد ادريس
- دوائر الاصفار ـ شعر
  محمد الشعرة
- في انتظار موسم الرياح ـ شعر
  مفدي أحمد

لوى ألتوسير

الفلسفة بين العلم والايديولوجيا

– ٢ –

ترجمة : محمد سبيلا

القســم الرابــع

نستطيع الان ، وقد نبهنا «تاريخ» النظرية الماركسية لاسباب تأخر الفلسفة الماركسية عن علم التاريخ ، أن نقصد لينين ، وندخل فى مؤلفاته • ولكن «حلمنا» الفلسفى سيتبدد : اذ ليست الاشياء فى مثل بساطته •

هنا أستبق خلاصتى • لا، لم يولد لينين باكرا للفلسفة• لايولد المرء أبدا مبكرا بالنسبة للفلسفة • اذا كانت الفلسفة متأخرة ، واذا كان تأخرها هو مايجعل منها فلسفة فكيف يجوز أن يكون المرء متأخرا عن تأخر ليس له تاريخ ؟ اذا كان ولابد أن نتحدث بأى ثمن عن تأخر : فنحن هم المتأخرون عن لينين • ليس تأخرنا الا الوجه الآخر للحقد • اذ أننا نسىء فلسفيا فهم العلاقات بين لينين والفلسفة • العلاقات بين لينين والفلسفة يمكن أن يعبر عنها تعبيرا جيدا فى الفلسفة ، داخل «اللعبة» التى تجعل من الفلسفة فلسفة ، ولكن هذه العلاقات ليست فلسفية ، لان هذه «اللعبة» ليست فلسفية •

أريد أن أحاول عرض النتائج المنتظرة لهذه الخلاصات ، ملتقطة ومنسقة ، في صورة ستكون بالضـرورة جد تجريديـة ، متخذيـن المؤلف «الفلسفي» الكبير لينين : «المادية والتجريبية النقديـة» ، موضوعا للتحليل • سأجزىء هذا العرض الى ثلاث نقط :

١ ـ الاطروحات الفلسفية الكبرى للينين •

٢ ـ لينين والممارسة الفلسفية •

٣ ـ لينين والموقف الحزبي في الفلسفة •

بمناسبة كل نقطة من هذه النقط سأسعى الى أن أبين الشيء الجديد الذي أضافه لينين الى النظرية الماركسية •

١ ـ الاطروحات الفلسفية الكبرى للينين

أعني بأطروحة ، المواقف الفلسفية للينين ، مدونة في منطوقات فلسفية • سأهمل الان الاعتراض الذي اتخذته الفلسفة الجامعيـة ذريعة لكي لا تطالع «المادية والتجريبية النقدية» : المصطلحات المقولية، المراجع التاريخية ، وبالاولى جهل لينين •

انها لواقعة تستحق وحدها دراسة خاصة ذلك أن لينين منـذ «افتتاحية» «المادية والتجريبية النقدية» التي تحيلنا فجأة الى باركلي والى ديدرو ، يتخذ ، لعدة اعتبـارات ، موقعا في المجـال النظـري لتجريبية القرن الثامن عشر ، اذن يتخذ موقعا في اشكال فلسفـي سابق على النقد «رسميا» ، هذا اذا اعتبرنا أن الفلسفة تصبح «رسميا» نقدية مع كنط •

حينما سجلنا وجود ونظام المراجع هذا ، وحينما نعـرف منطقه البنيوي ، فان الصياغات النظرية للينين يمكن تفسيرها كمفعـول لهذا المنطق، بما في ذلك الاعتصارات المذهلة التي يسبغها لينين على المصطلحات المقولية للتجريبية من أجل اعادة توجيهها ضد التجريبية• ذلك أنه اذا كان لينين يفكر ضمن اشكال التجريبية الموضوعية (يقول

لينين احساسية موضوعية) ، واذا كان التفكير داخل هذا الاشكال يطبع باستمرار لا صياغات فقط بل يذهب الى حد التأثير على بعض حركات التفكير عند لينين ، فانه ليس هناك من أحد ينكر أن لينين يفكر ، أى أنه لا يفكر تفكيرا منسقا وصارما . هذا التفكير هو الذى يهمنا من حيث أنه يصوغ اطروحات . ها هى ذى الاطروحات مصوغة فى جوهرها المكشوف . يمكن أن أميز فيها ثلاثا :

الاطروحة ١ : ليست الفلسفة علما . الفلسفة متميزة عن العلوم . المقولات الفلسفية متميزة عن المفاهيم العلمية .

هذه أطروحة رئيسية . أورد النقطة الحاسمة التى يتقرر فيها مصيرها : مقولة المادة ، وهى نقطة حساسة اذا كان الامر كذلك بالنسبة لفلسفة مادية ، ولكن النفوس الفلسفية التى تبتغى خلاص هذه الفلسفة أى موتها . لكن لينين يقول بوضوح أن التمييز بين المقولة الفلسفية للمادة والمفهوم العلمى للمادة مسألة حيوية بالنسبة للفلسفة الماركسية .

«المادة مقولة فلسفية» (م. ت. ن. ـ ص : ١١٠) .

«الخاصية الوحيدة للمادة ، التى يحدد قبولها المادية الماريخية، هو كونها واقعا موضوعيا» (م. ت. ن. ـ ص : ٢٣٨) .

يلى ذلك أن المقولة الفلسفية للمادة ، التى هى فى نفس الوقت أطروحة وجود وأطروحة موضوعية ، لايمكن أن تختلط أبدا بمضامين المفاهيم العلمية عن المادة . المفاهيم العلمية للمادة تحدد جملة معارف، حول موضوع هذه العلوم ، مناسبة لمستواها التاريخى . ان مضمون المفهوم العلمى للمادة يتغير مع حركة التطور ، أى مع تعمق المعرفة العلمية . ان معنى المقولة الفلسفية للمادة لايتغير ، لانه لاينصب على أى موضوع للعلم ، بل يؤكد موضوعية كل معرفة علمية لاى موضوع . ان مقولة المادة لايمكن أن تتغير . انها «مطلقة» .

ان النتائج التي يستخلصها لينين من هذا التمييز نتائج رئيسية • أولا فيما دعى آنذاك «أزمة الفيزياء» يعيد لينين ارساء الحقيقة : ليست الفيزياء أبدا في أزمة ، بل هي في نمو • لم «يغم» على المادة • المفهوم العلمي للمادة هو وحده الذي غير مضمونه ، وسيغيره باستمرار في المستقبل ، لان سيرورة المعرفة لا نهائية في موضوعها نفسه •

ليست شبه الازمة العلمية للفيزياء ، الا أزمة أو ارهاصة فلسفية حيث يلقي بعض الايديولوجيين ، حتى ولو كانوا علماء ، المسؤولية على المادية ، حينما يعلنون أن المادة قد اغمى عليها ، فيجب أن نصغي الى الحديث الخافت لرغبتهم : لتضمحل المادية •

وكان على لينين أن يدين ويصارع كل أولئك الفلاسفة العلمويين الذين ظهروا يوما والذين اعتقدوا أن ساعتهم قد أزفت • ما الذي تبقى اليوم من هؤلاء الاشخاص ؟ من ذا الذي ما يزال يعرفهم ؟ • لنقل أن هذا الامي في الفلسفة ، الذي هو لينين ، كان على الاقل يمتلك حكماء وأي فيلسوف محترف من بين الفلاسفة قد عرف ، مثلما فعل هو ، دون تريث ولا تردد ، كيف يتقدم الى الامام بمثل هذه الثقة في النفس ، وحيدا على الاطلاق ، ضد الجميع في معركة يبدو أنها مخسورة ؟ أود لو ذكر لي اسم واحد ـ دون هوسيرل ، الحليف الموضوعي للينين ضد التجريبية والنزعة التاريخية ـ ولكنه حليف موقت ولم يستطع ملاقاته ، اذ أن هوسيرل اعتقد ، ك «فيلسوف جيد» أنه يستطيع أن يسير الى «مكان ما» •

لكن أطروحة لينين تذهب الى أبعد من الافتراض المباشر • اذا كان يجب تمييز المقولة الفلسفية للمادة عن كل مفهوم علمي، فسيتبع ذلك أن الماديين ، الذين يطبقون المقولات الفلسفية على موضوعات العلوم كما لو كانت مفاهيم لها ، واقعون في «التباس» • مثلا : هذا الذي يستخدم الثنائي المقولي مادة ـ روح أو مادة ـ شعور ، استخداما

مفهوميا معرض للسقوط في مغالطات ، اذ أن «تعارض المادة والشعور ليس له مدلول مطلق الا فى حدود جد ضيقة ، فقط فى حدود السؤال الاساسى : ما هو الشيء الاولى ، وما هو الشيء الثانوى ؟ (أى فى الفلسفة) • بعيدا عن هذه الحدود (أى العلوم) لاتثير نسبية هذا التعارض أى شك» (م • ت • ن ـ ص : ١٢٨) •

لا حاجة بى الى الالحاح على نتائج أخرى ذات أهمية كبرى ، مثلا على مسألة أن التمييز بين الفلسفة والعلوم ، يفتتح بالضرورة ، فى منظور لينين ، مجال نظرية لتاريخ المعارف ، نظرية يعلن عنها لينين فى نظريته عن الحدود التاريخية لكل حقيقة (المقصود كل معرفة علمية) ، التى يعتقد أنها نظرية للتمييز بين الفلسفة والعلوم من جهة، وضرورة نظرية لتاريخ العلوم من جهة أخرى ، تحت نفس الزوج من المقولات •

اريد فقط أن أشير الى ما يلى : ان التمييز بين الفلسفة والعلوم بين المقولات الفلسفية والمفاهيم العلمية يشكل فى أساسه موقفا فلسفيا جذريا ضد كافة أشكال التجريبية والوضعية : ضد التجريبية ووضعية بعض الماديين أنفسهم ، وضد الاتجاه الطبيعى ، وضد النزعة السيكولوجية ، وضد النزعة التاريخية (بصدد هذه النقطة الدقيقة ، انظر المجادلة العنيفة ضد النزعة التاريخية لبوجدانوف) •

يتعين الاعتراف بأنه فيما يتعلق بفيلسوف يعلنون عنه متى عن لهم ذلك ، وبمناسبة رؤية بعض الصيغ ، انه قبل ـ نقدى ، قبل ـ كنطى ، ليس من باب الادابة بل قد يكون مدهشا أن نقول ان هذا البلشفى الذى لم يكن ـ لسنة ١٩٠٨ ـ قد قرأ سطرا واحدا لكنط ولهيجل ، بل كان يعتز فقط ببركلى وديدرو ، هذا البلشفى يقدم ، لاسباب غريبة ، دليلا على حس «نقدى» ضد الخصم الوضعى ، وعلى قدرة استراتيجية على التمييز هائلة للواقع الدينى للفلسفة «المفرطة النقد» انذاك •

والمدهش هو أن لينين يثبت القـدرة على اتخاذ هذه المواقـف المضادة للتجريبية فى عقر أشكالها التجريبـى الاصلى نفسـه • ان يستطيع المرء التوصل الى أن يكون مضادا للتجريبيـة مع التفكيـر والتعبير بالمقولات الاساسية للتجريبية ، فهذا اكتشاف مدهش يضع على كل حال «مشكلة» صغيرة أمام الفلاسفة ذوى النية الطيبة الذين يريدون اختبار هذا الامر •

هلا يعنى ذلك أن مجال الاشكـال الفلسفـى ، والصياغـات المقولية ، والمنطوقات الفلسفية ، لايكترث باتخاذ المواقف الفلسفية • هل معنى ذلك انه لايحدث أى شىء جوهرى فى ما يبدو انه يشكـل الفلسفة ؟ شىء غريب •

الاطروحة ٢ : اذا كانت الفلسفة متميزة عن العلوم ، فانه يوجد بين الفلسفة والعلوم رابطة امتيازية • هذه الرابطة تمثلها الاطروحة المادية للموضوعية •

هناك نقطتان جوهريتان بهذا الصدد :

النقطة الاولى : تتعلق بطبيعة المعرفة العلميـة • ان الاشارات المتضمنة فى «المادية والتجريبية النقدية» متناولة من جديد ومتطـور ومعقمة فى «كراسات عن الديالكتيك» : وهى تقدم كل معناها للاتجاه المضادة للتجريبية والمضاد للوضعية عند لينين داخل اطـار مفهـوم الممارسة العلمية نفسها • تحت هذه العلاقة يتعين اعتبار لينين أيضا شاهدا يتحدث عن الممارسة العلمية كممارس أصيل • ويكفى أن نقرأ النصوص التى أفردها «رأس المال» لماركس بيـن ١٨٩٨ و ١٩٠٥ ، وتحليله لـ «تطور الرأسمالية فى روسيا» لنرى أن ممارسته العلمية كمنظر ماركسى للتاريخ ، وللاقتصاد السياسى والسوسيولوجيـا ، تتبطن باستمرار بتأملات ابستمولوجية دقيقـة ، لاتقوم نصوصـه الفلسفية بشىء أكثر من اعادة تناولها بصورة عامة •

ان ما يريد لينين توضيحه ، ومرة أخرى من خلال مقولات يمكن ان تعديها مراجعة التجريبية (كمقولة الاثر المنعكس) ، هو الطابع المضاد للتجريبية فى الممارسة العلمية ، أى الدور الحاسم للتجريد العلمي ، وأحسن من ذلك ، دور عملية التنسيق المفهومية وبصورة عامة ، دور النظرية من حيث هى كذلك .

يعرف لينين ، من الناحية السياسية ، بنقده لـ «العفوية» الذى يستهدف لا عفوية وامكانيات وابداع وعبقرية الجماهير الشعبية ، بل ايديولوجيا سياسية ، تستغل الجماهير ، تحت ستار تمجيد لفظى لتلقائيتها ، كيما تدفع بها فى سياسة خاطئة . ولكننا لا نرى بصورة عامة أن لينين ، فى مفهومه عن الممارسة العلمية ، يتبنى بالضبط نفس الموقف ، اذا كان لينين قد كتب : «لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية» ، فقد كان يمكنه أيضا أن يكتب : لا انتاج لمعارف علمية بدون نظرية علمية . ان دفاعه عن الحاجة الى نظرية فى الممارسة العلمية يلتقى تماما مع دفاعه عن الحاجة الى النظرية فى الممارسة السياسية . ان اتجاهه المضاد للعفوية يكتسى اذن صورة نظرية مضادة للتجريبية ، ومضادة للوضعية ، ومضادة للبراجماتية .

ولكن بقدر ما أن اتجاهه المضاد للعفوية السياسية يفترض احتراما عظيما لعفوية الجماهير ، كذلك فان اتجاهه المضاد للعفوية النظرية يفترض الاحترام الاكبر لـ «ممارسة» فى عملية المعرفة . ان لينين لايسقط فى النزعة النظرية لحظة واحدة ، لا فى مفهومه عن العلم ولا فى مفهومه عن السياسة .

تسمح لنا هذه النقطة الاولى بفهم النقطة الثانية . ان الفلسفة المادية ترتبط ارتباطا وثيقا حسب لينين بالممارسة العلمية . ويبدو انه يجب أن نفهم هذه الموضوعة فى معنيين .

قبل كل شىء فى معنى أول ممعن فى كلاسيكيته ، وهو معنى يبرز ما استطعنا ملاحظته بصورة تجريبية فى تاريخ العلاقات التى

تربط كل فلسفة الى العلوم • ان ما يجرى فى العلوم يهم ـ حسب لينين ـ الفلسفة بالدرجة الاولى • ان الثـورات العلميـة الكبـرى تستدعي تعديلات مهمة في الفلسفة • وتلك هى موضوعة انجلس المعروفة : تغير المادية صورتها مع كل اكتشاف علمى كبير ـ وهـى الموضوعة التى دافع عنها لينين مبينا بصورة أخرى وباحسن مما فعل انجلس ـ هذا الذى روعته النتائج الفلسفية لاكتشافات علوم الطبيعة (الخلية ، التطور ، مبدأ كارنو •• الخ) ـ مبينا أن الاكتشاف الحاسم الذى يتطلب التعديل الالزامى فى الفلسفة المادية ، لا يأتى من علوم الطبيعة بقدر ما يأتى من علم التاريخ ، اى من المادية التاريخية •

فى معنى ثان يورد لينين حجة مهمة • فهو لم يعد يتحدث عن الفلسفة بصورة عامة ، بل عن الفلسفة المثالية • ان هذه الفلسفة ، على طريقتها الخاصة ، مهتمة خصوصـا بما يجـرى فى الممارسـة العلمية ، لانها تمثل فى أطروحتها الماديـة ، المعتقدات «التلقائيـة» للعلماء المتعلقة بوجود موضوع لعلمهم وبموضوعية معرفتهم •

لا يفتأ لينين يردد فى «المادية والتجريبية النقدية» أن معظـم المتخصصين فى علوم الطبيعة ماديون «بصورة عفوية» ، على الاقـل بفعل احدى ميول فلسفتهم العفوية • يتعرف لينين وهو يحـارب ايديولوجيات العفوية فى الممارسة العلمية «التجريبية ، البراجماتية» فى تجربة الممارسة العلمية ، على ميل مادى تلقائى من الاهمية بمكان بالنسبة للفلسفة الماركسية انه يوجد اذن علاقـة بين الاطروحـات المادية المطلوبة لتصور خصوصية المعرفة العلميـة ، والميل المـادى التلقائى لممارسى العلوم : كما لو كان يعبر فى نفس الوقت عمليـا ونظريا عن نفس الاطروحة المادية الواحدة للوجود والموضوعية •

أستبق الامر قائلا بأن الحاح لينين على تأكيد الرابطة الممتـازة الخاصة بين العلوم والفلسفة المادية الماركسية تشهد علـى أن الامر يتعلق بنقطة محورية حاسمة سندعوها ، ان حبذتم ذلك ، النقطـة المحورية رقم ١ •

ولكن بالتحديد هناك شيء مهم ، تتحدد ملامحه ، خلال ميزة الفلسفة التلقائية للعلماء ، وسيضعنا أمام نقطة محورية حاسمة أخرى ، من طبيعة أخرى تماما ·

الاطروحة ٣ : هنا أيضا يتناول لينين موضوعة كلاسيكية كان انجلس قد عرضها في «لود فيج فويرباخ» ، ولكنه يعطيها قيمة لانظير لها · هذه الموضوعة تتعلق بتاريخ الفلسفة من حيث هي تاريخ لصراع أزلي بين اتجاهين : المثالية والمادية ·

يلزم أن نقول أن هذه الاطروحة ، في فظاظتها ، تجابه بقوة معتقدات الاغلبية العظمى من الفلاسفة المحترفين · سيوقن هؤلاء من تلقاء ذواتهم ، اذا ما قبلوا مطالعة لينين ، أن أطروحاته الفلسفية ليست مبتسرة بالقدر الذي روجوه عنها · لكني أخشى كثيرا ألا تكون لديهم القدرة على أن يقاوموا بضراوة هذه الاطروحة الاخيرة التي قد تصدمهم في معتقداتهم العميقة · انها تبدو لهم ثخينة جدا ، ومستحسنة في نقاشات عمومية ، أي نقاشات ايديولوجية وسياسية· ان الزعم بأن كل تاريخ الفلسفة يرجع في النهاية الى صراع بين المادية والمثالية ، معناه فيما يبدو اغفال كل ثراء تاريخ الفلسفة ·

تستهدف هذه الموضوعة ، فعليا ، أن تؤكد ، فيما يتعلق بالمسائل الرئيسية ، أن الفلسفة ليست حقا ذات تاريخ · وما هو تاريخ ليس الا تكرارا لصدام الاتجاهين الاساسيين يمكن أن تتغير أشكال وحجج المعركة ، ولكن اذا لم يكن كل تاريخ الفلسفة هو تاريخ هذه الاشكال ، فانه يكفي ارجاع هذه الاشكال الى الاتجاهين الثابتين اللذين تمثلهما ليصبح تحول هذه الاشكال لعبة من أجل لا شيء · ليس للفلسفة في النهاية تاريخ · ان الفلسفة هي هذا المجال النظري الغريب حيث لايقع أي شيء الا هذا التكرار للا شيء ·

ان القول بأنه لايقع شيء في الفلسفة ، معناه أن الفلسفة لاتقود الى أي مكان من حيث أنها لاتشير الى أي مكان : ان المسارب التي

تفتحها هى فعلا كما قال ديبتز عن قبل هيدجر عبارة عن «طرق مسدودة» ، طرق لاتقود الى أى مكان •

هذا اذن ما يوعز به لينين عمليا ، فهو منذ الصفحات الاولى في «المادية والمذهب التجريبي النقدى» يوضح أن ماخ انما يقوم بترديد باركلى ، ويعارضه لينين (لحسابه الخاص) بترديده الخاص لديدرو• والافظع من هذا ، أن ندرك أن باركلى وديدرو يرددان كل منهما الآخر اذ انهما متفقان على الزوج مادة/روح ، الذى يسرهما اعادة ترتيب جدية فى صور مختلفة • ان لاشىء فلسفتهم الا لاشىء هذا القلب لحدى زوج مقولى ثابت (مادة/روح) الذى يمثل فى النظرية الفلسفية ألعوبة الاتجاهين المتعارضين اللذين يتجابهان عبر هذا الزوج • ليس تاريخ الفلسفة شيئا الا لاشىء هذا القلب البهلوانى المتكرر • ان هذه الاطروحة ستمنح معناها للصيغ العجيبة حول قلب ماركس لهيجل، هذا الهيجل الذى قال عنه انجلس نفسه بانه يكن الا قلبا يتعين القيام به •

يجب أن نعترف بصدد هذه النقطة أن الحاح لينين غير ذى حيثية ولاحد • انه يقذف ، على الاقل فى «المادية والتجريبية النقدية» (اذ أن هذه النغمة ستتغير فى الكراسات بصدد هذه النقطة) ، بكل اللوينات ، وكل التمييزات ، والوقائع ، وبكل التدقيقات النظرية التى تحاول بها الفلسفة ادراك «موضوع» ها : انها لاتعدو أن تكون سفسطات ، وتمييزات مفتعلة ، ومماحكات أساتذة ، وتلاؤمات وصفقات هدفها الوحيد هو تقنيع المراهنة الواقعية للمساجلة التى تنخرط فيها كل فلسفة : صراع الميول الاساسى بين المادية والمثالية• وكما لايوجد فى السياسة طريق ثالث ، كذلك لايوجد فى الفلسفة طريق ثالث ، أى نصف مقياس ، مواقف خلاسية • ليس هناك فى العمق الا مثاليون وماديون • وكل أولئك الذين لايعلنون انتماءهم جهارا هم اما ماديون أو مثاليون «خجولون» (كنط ، هيوم) •

ولكن مع ذلك يجب أن نذهب الى أبعد من ذلك ونقول أنه اذا لم يكن كل تاريخ الفلسفة سوى تكرار الحجج التى يستهلك فيها صراع واحد ووحيد ، فان الفلسفة ليست الا صراع اتجاهات ، هذا الـ Kampfplatz (٨) الذى تحدث عنه كنط ، ولكن الذى يقذف بنا اذن الى مجرد ذاتية محضة من الصراعات الايديولوجية • ان معنى ذلك أن الفلسفة ، فى الحقيقة ، غير ذات موضوع بالمعنى الذى نقول به ان علما ما ذو موضوع •

ان لينين يذهب الى حد القول بذلك ، وهذا ما يبرهن على أن لينين يفكر ، فهو يعلن انه لايمكن البرهنة على المبادىء الاخيرة للمادية ، كما لايمكن البرهنة (ولا رفض : الشىء الذى سيثير حفيظة ديدرو) على مبادىء المثالية • لايمكننا اقامة البرهان عليها اذ أنها ليست موضوع معرفة ، نقصد معرفة مماثلة لمعرفة العلم الذى يبرهن على خصائص موضوعاته •

ليس للفلسفة موضوع اذن • ولكن مع ذلك اذا لم يكن هناك أى شىء يقع فى الفلسفة ، فذلك بالضبط لان ليس لها من موضوع • واذا أمكن أن يقع شىء فى العلوم ، فذلك لان لها موضوعا ، موضوعا يمكن أن تتعمق معرفته ، مما يجعل لها تاريخا • ومن حيث أن ليس للفلسفة موضوع فليس يقع فيها شىء • ان لاشىء تاريخها لايعدو أن يكون اعادة للاشىء موضوعها •

ها هنا نأخذ فى الاقتراب من النقطة المحورية رقم ٢ التى تمس هذه الاتجاهات المعروفة • لاتقوم الفلسفة سوى بتكرار واجترار الحجج التى تمثل على هيئة منقولات ، الازمة الاساسية للاتجاهات • ان أزمتها التى لايمكن تسميتها فى الفلسفة ، هى التى تعضد الانقلاب الابدى اللامجدى الذى تعتبر الفلسفة مسرحه الثرثار ، أى انقلاب الثنائى

---

٨ ـ أى الميدان ، انظر كنط : نقد العقل الخالص • مقدمة الطبعة الاولى ص P.U.F.٥
(المترجم) وحرفيا ميدان platz صراع او كفاح Kampf

المقولى مادة/روح • كيف يبرز أحد الاتجاهين اذن ؟• انه يبرز فى النظام التسلسلى الذى يقيمه بين حدى الزوج : أى حسب نظام السيطرة • لنصغ الى لينين :

«ان بوجدانوف ، وقد أنهكته مناقشة بيلتوف وحده ، مارا بصمت على انجلس ، يستشيط غيضا لهذه التعريفات ، التي ليست على ما يظهر سوى ترديدات لصيغة انجلس •• التى ترى أن المادة هى العنصر الاولى والفكر هو العنصر الثانوى بالنسبة لاحد الاتجاهين الفلسفيين ، بينما يلقن الاتجاه الآخر عكس ذلك ، وعلى كل الحواريين الروس أن يرددوا ، وهم فى وجد ، رفض بوجدانوف • ان ذرة من التفكير ستبرهن لهم على أنه لايمكننا ، فى العمق ، أن نعرف المدلولين الاقصيين لنظرية المعرفة دون أن نعين أيهما يمكن اعتباره أوليا • ما معنى أن نعطى تعريفا ؟ انه قبل كل شىء ارجاع مفهوم معين الى مفهوم آخر أوسع •• ويتعلق الامر حينئذ بمعرفة ما اذا كانت هناك مفاهيم أوسع من مفاهيم الوجود والفكر ، من المادة والاحساس ، مما هو فيزيائى وما هو نفسى ، تستطيع نظرية المعرفة أن تشتغل بها • لا ، انها مفاهيم أخيرة ، بل هى أوسع المفاهيم ، التى لم يتجاوزها علم المعرفة لحد الان (بغض النظر عن تعديلاتنا الممكنة دوما فى المصطلحات) • ان الهرطقة والقحط الفكرى وحدهما يمكن ان يطالبا لهذين «السلسلتين» من المفاهيم الاخيرة ، الوسيعة الى ما لانهاية ، بتعاريف يمكن أن تكون شيئا آخر غير «مجرد ترديدات» : اعتبار احداهما أو الاخرى هى الاولى» (م• ت• ن• ص ١٢٧) (٩) •

ان القلب ، الذى هو من الناحية الشكلية ، اللاشىء الذى يحدث فى الفلسفة ، ليس شيئا منعدما فى حديثه الواضح ، أو بالاحرى هو مفعول عملية الغاء ، الغاء لتسلسل سابق مستبدلا بتسلسل عكسى • ان ما يجرى فى الفلسفة ، من خلال المقولات

---

٩ ـ الترجمة العربية عن دار دمشق ، ترجمة د• منير مشابك ص ١٤٠ (المترجم) •

الاخيرة التي تحكم كل الانساق الفلسفية ، هو اذن معنى هذا التسلسل ، أي معنى وضع مقولة في مكان السيادة والسيطرة ، انه ـ في الفلسفة ـ هذا الشيء الذي يدفعنا الى التفكير في الاستيلاء على السلطة ، أو الى أن نكون في موقع السلطة . من الناحية الفلسفية يتعين أن نقول ان الوقوع في موقع السلطة مقولة نظرية محضة ؟ . ان الاستيلاء على السلطة (أو الوقوع في موقعها) مسألة سياسية ، وهي غير ذات موضوع ، ورهانها هو السلطة ، وهدفها هو مفعول السلطة .

يجب أن نسجل هنا وقفة قصيرة لنرى ما يحمله لينين من جديد بالنسبة لانجلس . ان مساهمته كبيرة ، اذا أردنا قياس مفعول ما لم نأخذه في أغلب الاحيان الا على انه فروق رفيعة .

في العمق ، ان انجلس ، الذي يمتلك علائم عبقرية مدهشة حينما يشتغل عن ماركس ، فان تفكيره لايقارن بتفكير لينين . وغالبا ما يحصل له أن يجاور بين اطروحتين بدل أن يفكر فيهما من خلال وحدة علاقتهما .

والافظع ، انه لم يتخلص أبدا من تأويل وضعي «للايديولوجيا الالمانية» . وبالنسبة له ، فان على الفلسفة ، التي يطالب مع ذلك بدراستها منتظمة ، أن تختفي : اذ انها ليست بالنسبة اليه الا المختبر اليدوي التقليدي حيث صيغت في الماضي المقولات الفلسفية الضرورية للعلم . وقد تغيرت هذه الازمنة . وأدت الفلسفة عملها . وعليها الان أن تفرغ المجال للعلم . لم تعد هناك ، منذ أن أصبحت العلوم ، قادرة عمليا على تقديم النسق العضوي التوحيدي لعلاقاتها ، فانه لم تعد هناك حاجة لا الى فلسفة طبيعية ولا الى فلسفة روحية .

ما الذي تبقى من الفلسفة ؟ موضوع واحد : الديالكتيك ، القوانين الاكثر عمومية للطبيعة (ولكن العلوم تسد هذه الحاجة) وللفكر . تتبقى اذن قوانين الفكر التي يمكن أن نستخلصها من تاريخ

العلوم • ليست الفلسفة اذن منفصلة عن العلوم ، وهذا هو منطلق النزعة الوضعية التى تباغت بعض صيغ انجلس ، حينما يقول أن معنى أن تكون ماديا هو أن تقبل الطبيعة كما هى «بدون اضافة خارجية» ، ومع ذلك فان انجلس يعلم أن العلوم هى عملية معرفة • هذا هو السبب فى أن للفلسفة مع ذلك موضوع : ولكن المفارقة انه هو الفكر الخالص الشىء الذى لن يثير اشمئزاز المثالية • ما الذى يقوم به اليوم مثلا ــ باعترافه شخصيا بذلك ــ السيد كلود ليفى شتراوس الذى يدعى الانتساب الى انجلس ؟• انه يدرس هو أيضا القوانين ، ولنقل بنيات الفكر • وقد أوضح له السيد ريكور ، وهو على حق فى ذلك ، أنه كنط بدون الذات الترنسندنتالية • ولم ينكر السيد ليفى شتراوس ذلك • وفعلا ، اذا كان موضوع الفلسفة هو الفكر الخالص ، فيمكن للمرء أن يدعى الاستناد الى انجلس وأن يكتشف انه كنطى بدون الذات الترنسندنتالية •

يمكن أن نعبر عن نفس الصعوبة بصورة أخرى ، يمكن أن يقال عن الديالكتيك ــ موضوع الفلسفة ــ بأنه منطق • وهل تستطيع الفلسفة حقا أن تتخذ موضوع المنطق موضوعا لها ؟ يبدو أن المنطق ، ابتداء من الان ، فى الطريق الى أن يستغنى عن الفلسفة : انه علم •

حقا ان انجلس يدافع فى نفس الوقت أيضا عن قضية الاتجاهين ولكن المقصود عند مادية وديالكتيك من جهة ، وصراع اتجاهات وتقدم فلسفى تحدده بصورة خاصة التطورات العلمية من ناحية أخرى ، وهذا هو ما يتعذر التفكير فيه كله أى يتعذر التفكير فيه • ان انجلس يجرب نفسه فيه ، ولكن ، حتى اذا لم نرد أن نأخذه حرفيا (وهو أدنى شىء حينما يتعلق الامر بشخص غير متخصص) ، فمن الواضح جدا أن شيئا جوهريا ينقصه •

ومعنى ذلك أن شيئا جوهريا ما ينقص تفكيره ليتمكن من أن يفكر • وانه لبفضل لينين ان استطعنا أن نرى أن الامر يتعلق بنقص • اذ ينقص تفكير انجلس بالضبط ما يحمله اليه لينين •

يأتي لينين بتفكير منسجم انسجاما عميقا ، حيث تم ارساء عدد من القضايا الجذرية ، التي تسيج دون ريب عددا من الفراغات ، ولكنها بالضبط فراغات ملائمة ۰ يوجد في مركز هذا التفكير موضوعة أن ليس للفلسفة موضوع ، اى ان الفلسفة لايمكن تفسيرها بمحض العلاقة التي تقيمها مع العلوم ۰

ها نحن نقترب من النقطة المحورية ۲ ، ولكننا لم نلمسها بعد۰

٢ ــ لينين والممارسة الفلسفية :

لكى نلمس النقطة المحورية رقم ۲ ، سنحاول الدخول في مجال جديد ، مجال الممارسة الفلسفية ۰ سيكون من المجدى أن ندرس الممارسة الفلسفية للينين في مؤلفاته المختلفة ۰ ولكن ذلك يفترض اننا نعرف الممارسة الفلسفية من حيث هي كذلك ۰

يجد لينين نفسه في بعض الفرص النادرة مرغما تحت تأثير متطلبات الجدال الفلسفي على أن يصوغ نوعا من التعريف لممارسته الفلسفية ۰ وها هما النصان الاكثر وضوحا ۰

«يمكن أن تقولوا أن هذا التمييز بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية تمييز عائم ۰ وسأجيبكم : أنه فعلا «عائم» الى حد أنه يحول دون أن يصبح العلم عقيدة ، في المعنى المرذول للكلمة ، أى شيئا ميتا، مجملا ، مومياثيا ، ولكنه من التحديد بحيث يرسم بيننا وبين التقوية واللاادارية والمثالية الفلسفية ، وسفسطة حوارييى هيوم وكانط ، خطا فاصلا حاسما وراسخا» (م۰ ت۰ ن۰ ص ۱۱۷) ۰

«يجب ألا ننسى حقا أن معيار الممارسة لايمكن أن يؤكد أو ينفى أبدا ، بصورة نهائية ، فكرة انسانية كيفما كانت ۰ ان هذا المعيار هو أيضا «عائم» لئلا يسمح لمعارف الانسان بأن تصبح معارف «مطلقة» انه اذن من التحدد بحيث يسمح بنضال ضار ضد كل تحولات المثالية واللاادرية» ۰ (م۰ ت۰ ن۰ ص ۱۲۳) ۰

وهناك نصوص أخرى تدعم موقف لينين . ان الامر لا يتعلق بصيغ مرتجلة ومعزولة ، بل بفكر عميق .

يعرف لينين اذن الجوهر الاقصى للممارسة الفلسفية كتدخل في المجال النظرى يكتسى هذا التدخل مظهرا مزدوجا : مظهر نظرى بصياغة المقولات المحددة ، ومظهر عملى بفعل وظيفة هذه المقولات . تقوم هذه الوظيفة على «رسم خط فاصل» داخل المجال النظرى بين أفكار يعلن انها صادقة وأفكار يعلن انها خاطئة ، بين ما هو علمى وما هو ايديولوجى . ولهذا الخط المرسوم آثار مزدوجة : ايجابية من حيث انها تخدم ممارسة معينة ـ الممارسة العلمية ـ ، وآثار سلبية من حيث انها تدافع عن هذه الممارسة ضد بعض المدلولات الايديولوجية : ويتعلق الامر هنا بمدلولات المثالية والبراغماتية . تلك على الاقل ، الآثار الناجمة عن التدخل الفلسفى للينين .

فى هذا الخط الفاصل نلاحظ تجابه الاتجاهين الرئيسيين الذين طرحت مسألتهما من قبل . ان الفلسفة المادية هى التى تسطر خط الفصل هذا ، لحماية الممارسة العلمية من صولات الفلسفة المثالية ولحماية ما هو علمى من صولات الايديولوجيا . يمكننا أن نعمم هذا التعريف بقولنا : تقوم كل فلسفة على تسطير خط فاصل رئيسى تدفع بواسطته المدلولات الايديولوجية للفلسفات التى تمثل الاتجاه المضاد لاتجاهها ، وضمان هذا التسطير ، أى الممارسة الفلسفية اذن هو الممارسة العلمية ، أى الطابع العلمى ، نلتقى اذن بنقطتنا العقدية رقم ١ : العلاقة الممتازة للفلسفة بالعلوم .

نعثر هنا أيضا على الالعوبة البهلوانية لانقلاب الحدود حيث يعدم تاريخ الفلسفة نفسه فى اللاشىء الذى ينتجه . هذا اللاشىء ليس منعدما : لان لديه كضمان مصير الممارسات العلمية ، أى مصير ما هو علمى ، ووجهه الآخر الايديولوجى . اما أن تكون الممارسات العلمية مستغلة واما أن يخدمها التدخل الفلسفى .

أن يكون للفلسفة تاريخ وألا يقع فيها شيء مع ذلك ، يصبح ذلك امرا مفهوما ، اذ أن تدخل أى فلسفة تحول وتعدل مقولات فلسفية موجودة ، وبالتالى تصوغ هذه التغيرات فى المقالات الفلسفية، حيث يهب تاريخ الفلسفة وجوده ، هذا التدخل هو بصورة ممتازة اللاشيء الفلسفى الذى لاحظنا الالحاح عليه ، اذ أن خطا فاصلا ليس شيئا من الناحية العملية ، ولعله ليس حتى خطا ، وبالاحرى شيئا مسطورا ، واذن فهو فراغ اتخاذ مسافة •

تترك هذه المسافة أثرها فى تميزات الحديث الفلسفى ، فى مقولاته وأدواته المعدلة ، ولكن هل ليست هذه التعديلات شيئا فى ذاتها من حيث انها لاتؤثر الا خارج حضورها الخاص ، أى فى المسافة أو اللامسافة التى تفصل الاتجاهات المتعارضة للممارسات العلمية التى هى ضمان صراعها •

ان ما يمكن أن يكون فلسفيا حقا فى عملية خط منعدم هو حركته فقط • ولكن ذلك متعلق بتاريخ الممارسات العلمية والعلوم • اذ أن هناك تاريخا للعلوم ، وحسب تحولات الفرضية العلمية (أى حسب أوضاع العلوم ومشاكلها) وحسب حالة الادوات الفلسفية المتولدة من هذه التحولات تاخذ خطوط الجبهة الفلسفية مكانها • ان الالفاظ التى تعين ما هو علمى وما هو ايديولوجى تتطلب اعادة التفكير فيها فى كل مرة اذن •

هناك اذن تاريخ فى الفلسفة ، بدل تاريخ للفلسفة : تاريخ انتقال التكرار غير المتجدد لاثر منعدم تعتبر آثاره واقعية • يمكن الاستفادة من قراءة هذا التاريخ عند كل الفلاسفة الكبار ، حتى المثاليين ـ وعند هذا الذى يلخص كل تاريخ الفلسفة ، عند هيجل • لهذا يقرأ لينين هيجل باعجاب ـ ولكن قراءة هيجل تخص أيضا الممارسة الفلسفية للينين ، ان نقرأ هيجل بوجهة نظر مادية معناه أن نختط فيه خطوطا فاصلة •

يمكن أن أكون قد ذهبت الى أبعد مما قصده لينين حرفيا ، ولكني أعتقد انى لم أكن وفيا له • ومهما كان الامر فانى أقول : ان لينين يقدم لنا بم نبدأ في تصور الشكل الخاص للممارسة الفلسفية في جوهرها ، وأن نعطى ، استرجاعيا معنى لعدد من الصيغ المودعة في النصوص الفلسفية الكلاسيكية الكبرى • وقد تحدث أفلاطون من قبل عن صراع أصحاب الصور وأصحاب الارض ، وأعلن ان على الفيلسوف الحق أن يعرف كيف يقسم ، ويقطع ويرسم خطوطا للقسمة •

ومع ذلك يبقى هناك سؤال اساسى : ما مصير الاتجاهين الكبيرين اللذين يتجابهان في تاريخ الفلسفة ؟ يقدم لينين عن هذا السؤال جوابا متوحشا ولكنه مع ذلك جواب •

٣ ـ الموقف الحزبى في الفلسفة :

هذا الجواب متضمن في الاطروحة الشهيرة و ـ يجب أن نقول ـ التى تصعق العديدين بصدد الموقف الحزبى في الفلسفة •

يرن هذا الاسم كشعار سياسى مباشرة حيث يعنى الحزب ، حزبا سياسيا ، شيوعيا •

ومع ذلك ، يكفى أن نقرأ عن كثب ، لا فقط «المادية والتجريبية النقدية» ، بل أيضا وبصورة خاصة تحليلاته لنظرية التاريخ والاقتصاد ، لنرى أن الامر يتعلق بمفهوم لا بمجرد شعار •

يلاحظ لينين ان كل فلسفة تتحزب بفعل اتجاهها الاساسى ، ضد الاتجاه الاساسى المضاد ، عبر الفلسفات التى تمثله ، ولكنه يلاحظ في نفس الوقت ان معظم الفلسفات تحرص على ان تعلن جهارا ، أنها فوق الجميع ، وعلى أن تقدم الدليل بانها لاتتخذ موقفا حزبيا لانه ليس هناك ما يدعوها لاتخاذ موقف حزبى •

هذا هو الامر بالنسبة لكنط : فميدان الصراع Kampfplatz الذى يتحدث عنه شىء حسن بالنسبة للفلاسفة الآخرين ، القبل ـ نقديين ، لكن لا بالنسبة للفلسفة النقدية • ان فلسفته الخاصة تقع خارج الميدان «الكامفبلاتز» ، فى مكان آخر حيث تأخذ على عاتقها بالضبط مهمة التحكيم فى أزمات الميتافيزيقا باسم مصالح العقل • منذ وجدت الفلسفة ، منذ الـ «تأمل» (١٠) عند أفلاطون ، لغاية الفيلسوف «موظف الانسانية» لهوسيرل بل حتى لغاية هيدجر فى بعض نصوصه فان تاريخ الفلسفة يسوده هذا التكرار ، الذى ليس الا تكرارا لتناقض : الانكار النظرى لممارستها الخاصة ، والمجهودات النظرية السامقة لتسجيل هذا الانكار فى أحاديث متناسقة •

وجواب لينين على هذا الواقع المفاجىء ، الذى يبدو بناءا لمعظم الفلسفات ، يقوم على مجرد قول بعض الكلمات حول جثوم هذه الاتجاهات الغريبة التى تتجابه فى تاريخ الفلسفة • وفى رأى لينين ان هذه الاتجاهات ذات علاقة بمواقف وبالتالى بصراعات طبقية • أقول ذات علاقة لان لينين لايقول أكثر من ذلك ، ومن النافل أن لينين لايقول أبدا أن الفلسفة ترجع الى محض صراع طبقى ، حتى لو كان ما ندعوه فى التقليد الماركسى صراع الطبقات الايديولوجى • وحتى لانشتط فى تصريحات لينين ، يمكن أن نقول أن الفلسفة ، فى رأيه، تمثل صراع الطبقات ، أى السياسة • الفلسفة تمثل السياسة ، الشىء الذى يفترض طرفا تكون السياسة ممثلة لديه بهذه الطريقة : هذا الطرف هو العلوم •

النقطة المفصلية رقم ١ : علاقة الفلسفة بالعلوم • النقطة المفصلية رقم ٢ : علاقة الفلسفة بالسياسة كل شىء يجرى فى اطار هذه العلاقة المزدوجة •

---

١٠ ـ ترد اللفظة فى النص الاصلى بالاغريقية Theorein وهى تعنى فعل النظر أو التأمل النظرى •

يمكننا أن نقدم المقترح التالي : ستكون الفلسفة هي السياسة مواصلة بطريقة معينة ، في مجال معين ، بصدد واقع معين • ستمثل الفلسفة السياسة في مجال النظرية ، ولنكون أكثر دقة نقول : لدى العلوم ، ـ وهلمجرا ، ستمثل الفلسفة الدعوة العلمية فـي مجـال السياسة ، أي لدى الطبقات الخائضة في الصراع الطبقي • ولكـن كيف يسوى هذا التمثيل ، بأية ميكانيزمات يتأكد هذا التمثيـل ، وبأية ميكانيزمات يمكن تخطئته أو اخفاؤه • وكيف انه مخطا بصورة عامة ، هذا ما لايقوله لنا لينين • ان لدى لينين اقتناعا عميقا بأنـه ليست هناك ، في آخر المطاف ، فلسفة تستطيع أن تقفز فوق هـذا الشرط وتفر من حتمية هذا التمثيل المزدوج ، وبايجاز فان الفلسفة توجد في مكان ما ، كطرف ثالث ، بين هذين الطرفين الرئيسييـن اللذين يجعلان منها هي ذاتها طرفا : وهما الصراع الطبقي والعلوم•

يكفي أن نشير الى انه اذا كنا نجد لدى انجلس النقطة المفصلية رقم ١ أي طرف العلوم ، فاننا لانجد لديه ، رغم التلميح الى صراع الاتجاهات في الفلسفة ، النقطة المفصلية pointnodal رقم ٢ ، اي الطرف السياسي • ان معنى ذلك هو أن لينين ليس مجرد شارح لانجلس ، وانه يضيف شيئا جديدا وحاسمـا فيمـا ندعوه مجـال الفلسفة الماركسية : أي ما كان ينقص انجلس •

تكفي مجرد كلمة أخرى لنختتم ، لان معرفة هذا التمثيل المزدوج للفلسفة ليس الا ـ وهو بصورة خاصة ـ بداية متعثرة ، ولكنها بداية نظرية للفلسفة ، لتكن هذه النظرية نظرية برعمية ، ولتكن مجـرد محاولة فيما نعتقد انه مجرد محاولة ، فلا أحد يجادل في ذلك • ان تلميحات لينين هذه هي على الاقل ، اذا أردنا التمسك بها ، تمتلـك هذه النتيجة غير المعروفة ، نتيجة نقل المسألة الى مشكلة ، واخراج ما ندعوه الفلسفة الماركسية لاجترار ممارسة فلسفية هي ، دائمـا ، وعلى هيأة سيادة مطلقة ، ممارسة انكار لممارستها الواقعية • بهـذا المعنى يجيب لينين ـ وهو اول من فعل ذلك ، اذ ان انجلس نفسـه

لم يفعله ـ على نبوءة الاطروحة الحادية عشرة • لقد أجاب هو نفسه بواسطة «أسلوب» ممارسته الفلسفية • وهى ممارسة متوحشة بنفس المعنى الذى تحدث فيه فرويد عن تحليل متوحش لايقدم العناوين النظرية لعملياته ، تحليل يجعل الفلسفة تصرخ بـ «تاويل» العالم ، وهو ما يمكن ان ندعوه فلسفة الانكار • ولندع انها ممارسة متوحشة بقدر ما يحلو لنا ذلك ، ولكن من ذا الذى لم يكن متوحشا فى البداية ؟

ان هذه الممارسة ممارسة فلسفية جديدة ، جديدة من حيث انها لم تعد هذا التكرار الذى ليس الا ممارسة الانكار ، حيث لا تكف الفلسفة عن التدخل «سياسيا» فى المناقشات التى يتم فيها تقرير المصير الفعلى للعلوم ، بين المفهوم العلمى الذى تقيمه ، الايديولوجى الذى يتهددها ، والذى لايكف عن التدخل «علميا» فى الصراعات التى يتحدد فيها مصير الطبقات ، بين العنصر العلمى الذى يخدمها والعنصر الايديولوجى الذى يهددها ـ ومع ذلك فان هذه الممارسة تنكر بضراوة انها تتدخل فى «النظرية» الفلسفية ، ممارسة جديدة من حيث ان ممارسة ما هى التى رفضت الانكار ، ومن حيث انها هى التى تتصرف حسب ما هى ، وهى على علم بما تفعل •

اذا كان الامر كذلك يمكن أن نخمن اذن انه ليس صدفة أن يكون هذا المفعول الذى لانظير له قد ولده الاكتشاف العلمى لماركس ، وأدركه فكريا قائد سياسى بروليتارى • اذ انه فى النهاية اذا ما دفع العلم الاول للتاريخ الانسانى الفلسفة للخروج الى حيز الوجود ، فقد كان ذلك فى بلاد الاغريق ، أى فى مجتمع طبقى ، وعلما بمدى اتساع تأثير الاستغلال الطبقى ، فاننا لن نستغرب أن تاخذ هذه التأثيرات أيضا الصورة الكلاسيكية فى المجتمعات الطبقية ، حيث تنكر الطبقات السائدة كونها سائدة ، انكارا فلسفيا لسيادة السياسة على الفلسفة • لن نستغرب اذن أن المعرفة العلمية وحدها لميكانيزمات السيطرة الطبقية ، وكل آثارها التى انتجها ماركس وطبقها لينين ، قد آثارت ،

فى الفلسفة ، هذا الانتقال العجيب الذى يفجر ارهاصات الانكار ، حيث تحكى الفلسفة ذاتها لذاتها ، كيما يعتقد الناس ذلك ، وحتى يصدقوها بأن الفلسفة فوق السياسة ، كما أنها فوق الطبقات ٠

ينتج عن ذلك انه مع لينين فقط يمكن للجملة النبوئية الواردة فى الاطروحة الحادية عشرة ، أن تأخذ أخيرا كيانا ومعنى ٠ (حتى الان) «أول الفلاسفة العالم فى حين يتعين تغييره» ٠ هل تعد هذه الجملة لفلسفة جديدة ؟ لا أعتقد ذلك ٠ لم يتم الغاء الفلسفة، ستبقى الفلسفة هى الفلسفة ، ولكن بمعرفتها لممارستها ولما هى ، أو شروعا فى معرفة ذلك ، فانها يمكن أن تتحول اليها بالتدريج ٠ لن نقول اذن أن الماركسية أقل بكثير من أن تكون فلسفة جديدة : فلسفة الممارسة٠ هناك فى قلب النظرية الماركسية علم : علم فرويد ، ولكنه علم ٠ ان ما تدخله الماركسية من جديد فى الفلسفة هو ممارسة للفلسفة جديدة ٠ ليست الماركسية فلسفة (جديدة) للممارسة بل هى ممارسة جديدة للفلسفة ٠

هذه الممارسة الجديدة للفلسفة يمكن أن تحول الفلسفة ٠ وبالاضافة الى ذلك يمكن أن تساعد ـ على قدرها ـ على تحويل العالم٠ أن تساعده فقط ، اذ ليس النظريون ، علماء أو فلاسفة ، ولا حتى «الناس الكبار» هم الذين يصنعون التاريخ ـ بل «الجماهير» ، أى الطبقات المتحالفة فى نفس الصراع الطبقى٠

ملحوظة ملحقة :

يجب أن نحتاط بصدد تاريخ النص وبعض التعبيرات ، حتى لايساء الظن بمعنى هذه الادانة لاساتذة الفلسفة وللفلسفة التى يدرسون ٠ ان لينين وهو يتناول ديتزغن من جديد يدين أساتذة الفلسفة فى مجملهم لا كل أساتذة الفلسفة بدون استثناء ٠ انه يدين فلسفتهم ، ولكنه لايدين الفلسفة ، بل انه يدعو الى دراسة فلسفتهم لامكان تحديد ، ومتابعة ممارسة أخرى فى الفلسفة غير ممارستهم ٠

هناك اذن ثلاث مآخذ لايمكن أن يغير منها التاريخ والظروف أى شئ جوهرى :

١ ـ ان أساتذة الفلسفة عبارة عن اساتذة ، اى متقفون موظفون فى نظام مدرسى معين ، وخاضعون لهذا النظام ، ويمارسون فى جملتهم وظيفة اجتماعية هى تلقين «قيم الايديولوجيا السائدة» • وسواء وجدت «لعبة» فى المؤسسات المدرسية أو غيرها تمكن بعض الاساتذة بصفة فردية من تحويل تعليمهم وسلاحهم ضد هذه «القيم» القائمة ، فأن ذلك لايعدل من الاثر المجمل للوظيفة الاستاذية الفلسفية • الفلاسفة عبارة عن متقفين ، بورجوازيين صغار اذن ، خاضعون فى مجملهم للايديولوجيا البورجوازية والبورجوازية ـ الصغيرة •

٢ ـ هذا هو السبب فى أن الفلسفة السائدة ، التى يعتبر اساتذة الفلسفة فى مجملهم ، والى حدود حريتهم «النقدية» ، ممثليها وحملتها ، فلسفة خاضعة للايديولوجيا السائدة ، تلك التى حددها ماركس فى «الايديولوجيا الالمانية» ، كالايديولوجيا للطبقة السائدة ، هذه الإيديولوجيا تسيطر عليها المثالية •

٣ ـ هذه الوضعية ، سواء وضعية هؤلاء البوارجوازيين الصغار أساتذة الفلسفة أو وضعية الفلسفة التى يعلمون، او يعيدون انتاجها بصورة شخصية ، كل هذا لاينفى أن بعض المثقفين يمكن أن ينجوا من الارغامات التى تسيطر على زمرة المثقفين ، واذا ما كانوا فلاسفة يمكن أن ينتسبوا الى فلسفة مادية ونظرية ثورية • وكان البيان قد أشار الى هذه الامكانية ، ويستعيد لينين هاته الفكرة مضيفا الى ذلك أن مساعدة هؤلاء المثقفين أمر ضرورى بالنسبة للحركة العمالية • فى ٧ فبراير ١٩٠٨ كتب لينين الى غوركى : «ينخفض دور المثقفين فى حزبنا : اذ يعلن فى كل مكان أنهم يبرحون الحزب • فلتحمل الرياح الطيبة هؤلاء الاوغاد • ان الحزب يتخلص بذلك من النفايات البورجوازية الصغيرة • ومن الان فصاعدا يمسك العمال زمام أمورهم

بأيديهم ، ويتعاظم دور المناضلين من العمال • ان كل ذلك أمر رائع» • وكان غوركي ـ الذى استدر لينين عونه ـ قد احتج على ذلك ، ويجيبه لينين فى ١٣ فبراير ١٩٠٨ :

«اعتقد أن بعض المسائل التى أثرتها بصدد خلافاتنا ليست الا سوء تفاهم • اذ أني لم أفكر ، حقا ، فى أن «اطردهم من الحــزب» ، كما يفعل بعض النقابيين العبيطين ، ولم انكــر انهــم ضروريــون للحركة العمالية • لايمكن أن تكون بيننا خلافات بصــدد كل هــذه المسائل» • وبالعكس ، فى نفس الرسالة ، تقوم هذه الخلافات فى الفلسفة : «بالنسبة للمادية ، من حيث هى مفهوم للعالم ، اعتقد انى لست على اتفاق معك فى العمق ••» • اننا نشك فى ذلك، لان غوركى يدافع دفاعا عن قضية التجريبية النقدية والكنطية الجديدة •

الحجام علال

مسيرة الفارس الاعزل

ـ ١ ـ

لكم كتبت مطلعا للبشارة هل تكتبون القصيدة
وقبل ، الخوارج بين الظما وانبجاس الزلال
لها طرزوا في ادلاج القوافل عنوانها يتعالى نسورا
وتلويحة الموت كانت حياة على شطحات الجناح عقيدة
صخور بلادى ، التراب ، الغصون ، وأفئدة العاشقين
تشرب النار كأسا مجيدة
فتكحل مقلاتها والجفون دماء اذا انفقات أعين المارقين
في مسالكها بين قيظ الرمال ووهج السراب وحيده
ألا ايها النسر أخطأت رمى السهام
وعذرك أنك قربانا في غمار التشرد ، كانت جفون المنارة تغتالنا
في السكوت فلم تشتعل ، ورياح الفظاظة كانت عتيدة .
تنام الشجاعة في بطن ليلتك الغانية
أتنسى كؤوس الثمالة مصرع من زلزل البيد في الليلة الظامية
أتنسى عهود الاحبة يوم ارتضوا جرعة السم عن كأسك الفانيه !

تتمدد حرا على لعنات الرمال تلفك يأسا
تمنت خيول العواصف لو تمسخ الخمر والذل فى الرابيه ،
لثأرك عشت ، سكنت جموح الرياح
هجرت دموعى اللوائى استقرت سنى فى محاجرها العاصفه
ولم أعرف الفرح الا انكسارا على الصخر والموجة الراعفه
رأيت مسارى بين المغالق صولة يم ، يشق لجمر الصبابة سمته
وهذا يقينى جواد الجماعه
سيبلو المسيرة ، يبلى المجاعه
تخف الحوافر ، يهرب بالسيف ، والفارس الحر يقتل موته
ألا أيها الفرس المستجير قرينك موت قتلت جحافله
قيل : لم يتحرك اليوم بيتا لاهل ولا شجره
لك اليوم قتل المنون على الفجر قبل اغتسال الربى
بدم المجزرة

ـ ٢ ـ

تعودنى يا حلمة من عذاب يكفن «مكناس»
على وحشة الموت فى الليلة الثالثه
يخاصرها الجمر فى الموقد البكر يحلم فى الثلج أن يدفىء الناس
صلاة هواك على جبال الرفض والالسن اللاهثة
حصاد الاسارى اذا مات قلب السنابل فى شق أرضى بذارا

ولم تؤت كرمتنا لمنى القحط يوما ثمارا يعاقرها الصور

فهى على عنق الطير حين يغنى مدى تتجارى

تعودين ، أى سؤال يهزك يقبس منك جمارا فترتعشين سلام

أيسكنك الثأر ، أم تسكنين مع المتقاعد عين الحمام !؟

ـ ......

ـ عرفت ..!

لهم فى بلادى الايادى التى تعشق الجرح ،

تمحو نجيع المدى باللسان

فأين الحسام وأين السنان ؟

ولى فى المطارات سجن ، ومن يوقدون السجاير لى

خفية من كلاب الامان

يبذلون الاحاديث ، خبر مطار الهوى عن شريد تغرب فى منتدى

طئ فى ديار السلام ، وخبر عن الشمس مأسورة

فى كهوف البغايا

اذا غادرت دمعها فى الجبال السرايا .

ـ ٣ ـ

تشهت فيافى البلاد دمانا السخينة

أيا طعنة الفرح فى صدر أختى الحزينه

أتمسى بحارا بعمق التراب تدك مخالب لوعته ؟

أللفقر ترثين ؟

شارة صدر الطريد جواز الى الجبل المستنير بطلعته
وللجوع ، والنفى ، والسجن ، مفتاح قفل المغالق
غنى لامى فهى تجوب الموانىء حبلى
اذا أنت تشدين للجمر تحت التراب تكونين أحلى !
تثاءب فى طرفك النوم
قد لايطول ،
عميق عباب التبرم ، نحن سواسية فى لظى الانتظار
اذن فلمنزق كتاب الموانىء اذا لفت النار أشلاءه
ولنسر فى دمانا السخينة نار

تقود المسيرة نحو حدود النهار !

قصر السوق ـ الحجام علال

سعــدى موســى

دراسة مجملة عن :

المناجم القديمة بالمغرب وطرق استثمارها

١ ـ المناجم القديمة بالمغرب :

يعتبر البحث التاريخي في بعض الحالات طريقة للاستكشاف المنجمي ، وهكذا فان عدة مناجم قديمة ، قد تم اكتشافها بالمغرب ، بناءا على المراجع التاريخية ، ووجود أشغال منجمية قديمــة • وان بعض القرائن القليلة تدل بأنه تم استثمار بعض المعادن مثل النحاس منذ عصر ما قبل التاريخ • وبعد القرطاجنيين اهتم الرومان علــى ما يظهر بعض الشيء بالثروات المنجمية بافريقيا الشمالية • وتدل عدة مراجع تاريخية للمؤرخين والجغرافيين العرب يرجع عهدها الى فترة ما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر ، أن ازدهار النشاط المنجمي بالمغرب ، قد تم في العصور الوسطى • وان أهم المواد التي استثمرها الاقدمون هي : الفضة والنحاس ، والحديد ، والملح وزيادة على ذلك فانهم قد استخلصوا الذهب ، والرصاص ، والقصديــر ، والزنك ، والانمد «الانتمون» ونجد كذلك بعض الاشارات التي تتعلق بملح البارود ، وحجر الشب والمرجان •

الفضـــة :

لقد كانت الفضة هى أساس صناعة النقود ، والمجوهـرات ، ولقد تم استثمارها فى أربعة مناجم رئيسية من القرن العاشر الـى الرابع عشر ، ويتعلق الامر فى غالب الاحيان بالمكامن العرقية المرتبطة بكبريت الرصاص المفضض : «عدنا» «وامتـر» بالاطلس الصغيـر «وازكوندر» بالاطلس الكبير ، وجبل عوام بالمغرب المتوسط . ولقد اثبتت نتائج التحريات التى قام بها المؤرخ روزنبرجى بجبل عـوام عام ١٩٦٤ ، على أن النشاط المنجمى بهذا المعدن قد كان خلال القرن الثانى عشر . وهذا ما تؤكده نتائج التحليل بواسطة «الفحم الرابع عشر» ، وهذه المناجم التى كانت من بين أغنى مناجم العالم الاسلامى فى ذلك التاريخ ، كانت مصدر ازدهار اقتصادى مرموق للبلاد فـى بداية العصور الوسطى . ولقد شرع مؤخرا فى استثمار هذه المناجم من جديد ، وان كثيرا من المعطيات الجيولوجية والمنجمية قد مكنـت من التفكير فى بدء استثمار المناجم الاخرى الباقية .

النحـاس :

اما فيما يخص النحاس ، فان أغلب المناجم قد تم استثمارهـا منذ القرن العاشر ، وذلك حتى بداية العصور الحديثة ، وأهمها كانت فى «تزلاغت» وافران وتناوت بالاطلس الصغير و «داى» بالاطلـس الكبير ، وجبل الكلخ بالاطلس الكبير الشرقـى . وكان قسم مـن النحاس الذى تم انتاجه يستعمل فى المغرب فى ضرب النقود ، وفى مجال الصناعة التقليدية وقسما آخر كان يصدر الى افريقيا الغربية ، واوروبا ، وخاصة فرنسا ، وانجلترا وكذلك الى هولاندا . وبعـد استنفاذ الجزء الاكبر من هذه المكامن ، ومنافسة النحاس المستورد ، ابتداء من بداية القرن العشرين ، فان هذه المكامن قد أهملت الواحدة

بعد الاخرى ، ولم يستانف استثمارها من جديد الا بعد سنة ١٩٤٠ (ازكور ، جبل الكلخ ، وبوسكور) ويظهر أننا اليوم على وشك ازدهار اكثر أهمية في هذا الميدان •

الحديد :

لقد تم استثمار عدة مكامن للحديد ذات أهمية مختلفة منذ مدة طويلة ، أهم هذه المكامن هي : ابني سعيد بالريف الشرقي ، ومكمن ادندون في جنوب المغرب المتوسط ، وقد عرف هذان المكمنان في بداية عصرنا استثمارا على الطريقة العصرية ثم توقف استغلالها بعد عدة سنوات من الانتاج • ولقد أشير الى وجود منجم للحديد في ادرار انووزال في أقصى جنوب المغرب اعتبارا من القرن الحادى عشر ومن المحتمل أن يكون هذا المكمن نفس المنجم المعروف باسم كارة اجبيلات قرب تيندوف •

الملح :

ان وجود الطبقات الجيولوجية التي يرجع عهدها لحقب البرموترياس الملحي بالمغرب ، يفسر وجود عدة مناجم للملح قديمة جدا ولا يزال يستثمر البعض منها حتى يومنا هذا بطريقة تقليدية كمنجم تسا بشمال شرقي فاس •

الذهب :

لقد أشير الى وجود استثمارات للذهب قرب اقة جنوب الاطلس الصغير وتازة وسجلماسة بتافيلالت • أما بالنسبة لهذا المكمن الاخير ، فانه يمكن أن يكون الامر متعلقا بمكمن بومعادين الموجود بجبل اكنات والذى أجريت فيه أشغال قديمة ما زال أثرها ظاهرا •

القصــديــر :

لا يوجد بشمال افريقيا الا مكمن واحد للقصدير ، له بعض الاهمية وهو مرتبط بصخور الغرانيت قرب أولماس بالمغرب المتوسط وهذا المكمن الذى يمكن أن يكون قد تفرع عنه مكامن لحقيقة برمال الوديان يعرف انه كان فى طور الاستغلال •

مستخلصات أخرى :

وأخيرا فانه توجد مراجع منذ القرن الحادى عشر تشير الى وجود الاحجار شبه النفيسة كالاغات فى ناحيــة تشكـا بالاطلس الكبير ، ووجود المرجان فى ناحية سبتة ، والكتان الحجرى فى سهل درعة• وقد تفرقت مواد أخرى كانت أقل استعمالا بالنسـبة للقدماء مثل : الزنك ، وملح البارود ، وحجر الشب ، والاثمد (والانتمون) والغاسول •

ب ـ فن المناجم عند القدماء :

ان أغلب المناجم المغربية القديمة كانت توجد بملك أشخاص ، أو جماعات محلية ، والمشتغلون بالمناجم قديما ، كانوا يهتمون بكل مراحل استثمار المكامن ، من مرحلة الاستكشاف ، الى مرحلة اذابـة المعادن ، وذلك مرورا بمراحل استخراجه من الارض ومعالجته لقصد رفع نسبته المائوية •

ـ استكشاف المناجم :

لاتتوفر لدينا أية معلومات لا على الطريقة التى كانت تكتشف بها هذه المناجم ، ولا على العصر الذى بدأ فيه استثمارها ، ونجهـل كذلك من علم المنجميين المغاربة فى المناجم الذى نجده فى البوادى

لحد الان ومن الممكن أن يكون الفنيقيون هم الذين قاموا بذلك ، أو اليهود الذين قدموا قديما من فلسطين نحو المغرب والذين يعتبر تاريخهم مرتبطا كبير الارتباط بالنشاط المنجمي والنقدي في البلاد •

ـ الاستثمـــار :

ان عدد الكتاب القدماء الذين يتعرضون في أقوالهم ، للطريقة التي كانت تستثمر عليها المناجم القديمة قليل جدا • ورغم هذا يوجد بين أيدينا نص للكاتب القزويني (١) يرجع الى القرن الثالث عشر ، حول معدن فضة «ازكوندر» وهو يعطي شرحا مفصلا لطريقة استثمار هذا المنجم • ومن المحتمل أن هذه الطريقة قد لاتختلف كثيرا عن تلك التي كانت تستعمل حينذاك في مناجم لها نفس الاهمية ويقول هذا المؤرخ :

توجد مناجم فضة ليست في ملك أحد يستثمرها من يشـاء ، وهي عبارة عن انفاق تحت الارض ، يشتغل فيها باستمرار كثير من الناس ، ويضيف نفس المؤلف قائلا انه عندما يصل العمال الى عمق ٢٠ دراعا يظهر الماء ، ولهذا السبب أنشأ السلطان في هذه المناجم نواعر تقوم بجمع الماء حتى يظهر الطين فيقوم العمال حينذاك بنقـل الطين الى سطح الارض وغسله ، والسلطان يقوم بذلك لقصد الحصول على خمس الانتاج • وبعد أن شرح القزويني كيف يتم افراغ المـاء الذي يغمر المنجم ، أضاف قائلا : بأن هذه الاشغال لاستخراج الماء لاتناسب الا من يتوفر على رأس مال كبير • ويقيم المستثمر عند مدخل النفق ويستأجر من لهم دراية بفن المناجم من صناع وعمال وهم يقومون أمامه باخراج الطين وغسله • وعند انتهاء العملية يقتطع الخمس المستوجب للسلطان ، والباقي يصبح ملكا خاصا له • ويغطي المنتوج

---

١ ـ هذا النص مذكور في مقال كتبه المستشرق الفرنسي كـولان سنة ١٩٥٤ (صحفة ٢٢٨ ـ ٢٢٩) •

مصارفه في بعض الحالات ، وقد لايغطيها فى البعض الآخر ، وهـذا يتوقف على النشاط الذى يبذله المستثمر ٠

ان الوصف السابق ينطبق على منجم ذى أهمية يجرى استثماره بواسطة انفاق الى غاية عمق ١٥٠ متر على الرغم من وجود المـاء ٠ ولقد استغلت مناجم أخرى فى أول مرحلة من استثمارها بواسطـة خنادق ٠ أما على سطح الارض فمن الممكن أن تكون قد استعملت النار لكسر الصخور القاسية مثل اكوارتزيت عدانه ، فبعد أن يخضـع الصخر لحرارة عالية ناتجة عن نار الحطب ، يصب عليه الماء ممـا يجعله يتفتت ٠

وغالبا ما كان يستثمر عمال المناجم القدماء العروق المعدنيـة متقدمين الى داخل العروق المعدنية ومبتعدين عن الصخور المجـاورة غير المعدنية ٠ غير أنه يحدث أن يبتعدوا عن العروق المعدنية كلمـا كان ذلك ضروريا بالنسبة للمناجم المهمة ٠ ومن بين المناجم القديمة المستثمرة على هذا النحو ، نجد منجم جبل عوام الذى هو خير مثـال حيث يمكننا من معرفة الطريقة التى كان يتبعها القدماء ٠ وفى الحقيقة فان البدء فى استثمار المعادن بالطرق الحديثة قد مكننا من الدراسة المباشرة للاشغال التى تمت تحت الارض ، والعرق المعدنى الـذى يعرف بواسطة الخنادق والآبار ، يستثمر من أسفل الى أعلى ، وكان الكيس العرقى فى بعض الاحيان يردم كلما تم استثماره ٠ وعندما تكون الارض متماسكة فانه يعمد الى استعمال اعمدة من الخشـب لتفادى الانهيار ٠

وفى هذا الصدد وجدت فى جبل عوام عدة أخشاب منجميـة منجورة نجار جيدة ٠ ووجدت كذلك لوحات خشبية ، كانت توضع فوق قطعتين خشبيتين يتم الصعود فوقهـا للوصول الـى سقـف المنجم ، وبعد ذلك يستأنف العمل فى بئرين آخرين يمتدان من نفق أعد فى مستوى أدنى وتبدأ العملية من جديـد ٠ وهكـذا تستمـر

الاشغال في الاعماق بواسطة طبقات متتابعة يبلغ طولها ٧٠ مترا ، وذلك لغاية عمق قدره ٢٠٠ متر ، ولا تتوقف الاشغال الا عندما تصبح المياه المنجمية غزيرة بالنسبة لقدرة الآلات المائية المستعملة لازالتها خارج المنجم .

وفى عملية الحفر عن الركاز كان العمال يستعملون ادوات حديدية وقد وجدت هذه الادوات فى المناجم القديمة ، فلقد كانوا يعرفون الفأس الخاص لهذا الغرض وهذا ما تشهد به الاكتشافات التى جرت فى جبل عوام وفى منجم الحديد «بريو المعدن» فى الريف الشرقى ، واستعملت كذلك المطرقة والمنقاش ، وما زال عمال منجم العدانة يستعملونها لحد الان .

وبعد ان تجرى التصفية الاولية داخل المنجم يجلب المعدن المستخلص بواسطة نوع من الفؤوس ذات صفيحة مثلثة عمودية على مقبض من الخشب حتى يصل الى قفف من الدوم او الى دلاء من الخشب مثل تلك التى تستعمل حتى اليوم فى الحمامات التقليدية ، ويصعد بهذه الدلاء الشديدة المتانة الى سطح الارض بواسطة بكرات، اما عن مشكلة الانارة ، فقد كانت تستعمل قناديل الزيت . ولقد وجدت نماذج منها فى أعماق المناجم ، والنماذج الاكثر اتقانا وجدت فى جبل عوام مقدمتها على شكل منقار طويل وتحمل بواسطة عروة صغيرة ، ووجدت كذلك قدور صغيرة عريضة فى الاسفل وضيقة فى الاعلى كانت تستعمل على ما يظهر لنقل الزيت الضرورى للانارة .

اخراج المياه الجوفية :

نلاحظ بصورة عامة ما عدا بعض الاستثناءات كجبل عوام ،

ان عمال المعادن القدماء كانوا يتعدون عمق ٥٠ متر . وفى الواقع فان الطرق المستعملة فى الحفر كانت بدائية ، وكان مستوى الطبقة

المائية يشكل حدا يصعب تجاوزه • ووجد المعدنيون (عمال المعادن) القدماء وسيلة لازالة قسم من الماء الذى يغمر المنجم ، وذلك بتفريغه بواسطة ناعورات •

غير أنه اعتبارا من عمق ما ، فان كمية الماء تصبح كبيرة ويصعب افراغها • ولقد وجد العديد من بقايا هذه الناعورات كالاقداح الطينية وقطع جزئية من الخشب كانت تكون هياكلها • ومما تجدر الاشارة اليه هو أن الاعماق فى حدود ٢٠٠ متر ، التى وصل اليها الاقدمون ، كما هو الحال فى جبل عوام ، لم يتم بلوغها الان لان مستوى طبقة المياه كان هو نفسه منخفضا •

معالجة الاركزة لقصد رفع نسبتها المائوية :

ان المعدن الخام الذى أجريت عليه التصفية الاولية بالاعماق يكسر بواسطة مطرقة ، وهذه هى الطريقة المستعملة لحد الان فى منجم العدانة ، والتى تمكن القيام بتصفية يدوية • فالاجزاء غير الصالحة تشكل أكواما بقرب مكان استخراج المعدن ، أما الجزء الغنى فيتم سحقه بواسطة مطاحين كبيرة كانت تصنع من الاحجار القاسية، ولقد وجدت منها عدة مطاحين فى امتر وازكوندر من مختلف القياسات ، ومن صخور مختلفة التكوين كالغرانيت ، والديوريت ، والبازالت • يسحق المعدن الى أن يصبح على شكل حبوب صغيرة أو على شكل غبرة بواسطة الطاحونة التى كان يدورها أشخاص أو حيوانات مثل البغال • وتشبه هذه المطاحين تلك التى نراها لحد الان فى البوادى لسحق الزيتون قصد استخلاص الزيت •

وبعد عملية السحق كان يعرض المعدن الخام المسحوق الى تيار من الماء ، فيأخذ الماء العناصر الخفيفة التى تمثل الطبقة الصخرية ، أما العناصر المعدنية الاكثر ثقلا فترسب فى الاسفل وهذا يستلزم وجود ماء جارى ، يصعب تحقيقه على الدوام • وبصورة عامة يستعمل

تيار مائى طبيعى هو عبارة عن واد أو جبل ، وبما أن الماء لم يكن متوفرا بصورة مستمرة ، فانه كان من الضرورى انجاز عمليات جلب المياه من بعيد وكان يستعمل أحيانا الماء المستخرج من المنجم • ونحن لانعرف كيف كانت تشتغل تلك المغاسيل بصورة مفصلة ، غير انه ليس من المستبعد أن يكون القدماء قد استعملوا قنوات ضيقة فيها قطع خشبية موجودة على أبعاد متساوية وعمودية على مجرى المياه •

ولقد ثبت وجود هذه الغسالات المعدنية فى جبل عوام وهذا ما يشهد به تراكم أكوام من صخور غير معدنية فى واد جنوب قلعة «اغرم أوصبار» وكذلك فى امتر شمال الاشغال القديمة • ومن المحتمل ان يكون المعدنيون القدماء يستعملون كذلك مفعول الهواء لتفريق الاقسام غير المعدنة الدقيقة ، والخفيفة من المعدن الخام الثقيل ، كما هو الشأن بالنسبة لما يقوم به حاليا عمال المناجم بالعدانة ، ومن أجل هذا ، كانت الصخور المسحوقة يلقى بها من ارتفاع ما ، فيسقط المعدن شاقوليا ، بينما العناصر الاخرى غير المعدنة الخفيفة كانت الرياح تسوقها بعيدا • كان القدماء يعتبرون أن البقايا الناتجة عن غسل الصخور المعدنة ، غير صالحة ، وهى فى الحقيقة تحتوى على قليل من المعدن لم تكن الطرق التقليدية تسمح باستخراجه •

وهكذا فان البقايا الناتجة عن غسل المعدن بمنجم امتر والتى تقدر بـ ٣٥٠ ٠٠٠ طن ، تحتوى على ٣٨١ غرام من الفضة فى الطن ، وكان هذا كافيا لانشاء معمل تم انجازه لاستخراج هاته الفضة . وفعلا فان هذا قد أصبح ممكنا بفضل الطرق الحديثة لمعالجة المعادن •

صهر المعدن :

وان ما يحصل عليه بعد مختلف العمليات السابقة يتم صهره فى أفران بسيطة • ولقد لوحظ منذ عشرين أو ثلاثين سنة وجود أفران من هذا النوع فى حالة استعمال فى كثير من نواحى المغرب •

وفي هذا الصدد لقد صرح السيد اولوج وهو كاتب ورسام فرنسي ، بانه راى فرنا لاذابة النحاس لايزال في حالة استعمال في الاطلس الصغير ولايقاد فحم الخشب المستعمل فيه كان يستعان بتيار من الهواء ناتج عن منفاخ مزدوج من الجلد •

ومن جهة أخرى شوهد وجود أفران لاذابة معدن الحديد بالاطلس الكبير بدمنات ، ولوحظ بأن الاقدمين كانوا يقيمون أفرانهم في شعاب كثيرة الرياح ، قصد الحصول على تهوية طبيعية • هذه الطريقة لصهر المعدن في مجرى الهواء ، لم تكن صالحة الا بالنسبة للكبريتات المعدنية • فعندما تحترق الكبريات فانها تنتشر ثاني اكسيد الكبريت في حين ان الفلز الناتج عن التفاعل يلتصق بالقعر ، ففي حالة النحاس مثلا اننا نحصل بعد التصلب على كتلة معدنية مستوية على شكل رغيف مستدير ، ولعله من الممكن أن يكون هذا هو أصل تسمية المعدن «بتنكولت» وتعني هذه الكلمة الخبز بالبربرية • لقد وجد سنة ١٩٦٩ مرجعا يذكر نحاس تنكولت في احدى مؤلفات ميناء مرسيليا التي ترجع الى القرنين السادس والسابع عشر • ومن الملاحظ أن هذه الطريقة التقليدية لصهر المعدن لم تكن تسمح باستخراج كل الفلز الموجود في الركاز •

وهكذا فان الفسالة أو الزبد المعدني الذي نجده في جبل عوام يحتوي على نسبة ٣٠ في المائة من الرصاص ، ومن جهة أخرى فان المعادن المؤكسدة قد تركت في مكانها وذلك لعدم التمكن من معالجتها• وحتى فيما يتعلق بالكبريتات فان جزءا من المعدن يظل ضمن الفسالة ويمكن مشاهدته داخلها أحيانا على شكل قطرات ترافقها أجزاء من فحم الخشب والمعدن الخام • وهذا ما جعل بعض الكتاب المعاصرين يقولون بأن هذه الطريقة لاستخراج المعادن لاتستحق نفس الاعجاب الذي يجلبه علم التعدين عند القدماء •

المشكلة الخاصة باستخراج الفضة :

لقد كانت الفضة مرتبطة بالرصاص الناتج عن كبريت الرصاص في معظم المناجم القديمة للفضة بالمغرب ، ويظن بأن فصل هذين المعدنين كان يتم في أفران خاصة ، حيث تجرى التصفية من خلال بوتقة من مسامي أو من عظم اسفنجي • ولقد وجدت آثار هذه الافران الخاصة بتصفية الفضة داخل قلعة اغرم أوصبار بالقرب من جبل عوام •

ولقد اكتشفت أفران متشابهة في امتر حيث نعلم بأن عملية نقدية قد تم سكها في عهد الادارسة ووجدت معها أجزاء من قوالب ترابية مستوية تحتوى على خلايا صغيرة متشابهة وموضوعة على الطريقة التي تكون عليها خلايا عش النحل • فلو كانت هذه القوالب قريبة العهد ، لفكرنا بأنها كانت تستعمل في صنع رصاص البنادق، وكما اننا نظن بأنها قديمة جدا فاننا نفترض بأنها كانت تستعمل لصناعة كرات فضية صغيرة لها نفس الوزن قصد طبعها للحصول على القطع النقدية ، غير أن هذا ليس الا افتراضا لم يتم اثباته بعد •

الخلاصة :

ان دراسة بعض النصوص التاريخية المتعلقة بوجود عدة مناجم بالمغرب كان القدماء يقومون باستثمارها قد مكنتنا من أن نلاحظ الى اية درجة من التقنية وصل المعدنيون المغاربة قديما •

ولقد استنتج مهندسوا المناجم الاجانب المعاصرون بأن الطرق المستعملة في جبل عوام لاستثمار المعادن تشبه الطرق التي وصفها في القرن السادس عشر العالم الالماني اكريكولا في كتابه والتي كان المعدنيون الاروبيون يستعملونها في عهده استنتجوا من هذا بان استثمار منجم جبل عوام لابد أن يكون عهده يرجع الى ما بعد القرن السادس عشر وينسبونها الى البرتغاليين وهذه الملاحظة تتناقض مع

المعطيات التاريخية وعلم الآثار وكذلك مع تحديد عمر الاخشاب الموجودة بطريقة الاشعة النووية • وفعلا فان هذه الوقائع كلها لتؤكد بأن عصر استثمار منجم جبل عوام والمناجم التى تشبهه يرجع فى الغالب الى القرون الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر •

وهكذا فان كل هذه المعطيات تدل بكيفية صارمة بأن المعدنيين المغاربة القدماء قد حصلوا فى عصر مبكر نسبيا على تقنية يقدر قيمتها الخبراء فى الوقت الحاضر • ومن جهة أخرى فان هذه المناجم التى كانت محل صراع من أجل السيطرة عليها ، تمكننا من أن ندرك أكثر وتحت ضوء جديد ، الحوادث التاريخية للبلاد • وان استثمار هذه المعادن لابد أن يكون قد ساهم فى تحقيق الازدهار الاقتصادى المرموق الذى عرفه المغرب فى بداية العصر المتوسط •

ولقد تلى هذا الازدهار انحطاط تدريجى اعتبارا من القرنين الخامس عشر والسادس عشر • ان نفاد ثروات المكامن بالنسبة للطرق التقليدية وترك استغلالها كان فى الغالب أحد العوامل المسببة لهذا الانحطاط • ان بعض المناجم فى عصرنا الحاضر مثل منجم جبل عوام ، ومنجم امتر ومنجم جبل الكلخ قد أعيد استثمارها ، وكثيرا من المعطيات الجيولوجية والمنجمية والتقنولوجية قد تسمح فى البدء باستغلال مناجم عديدة أخرى وذلك بعد ركود دام عدة قرون •

مارس ـ ١٩٧٤

تنبيـــه

تلفت المجلة نظر قرائها الكرام أن الافكار التى ترد فيها قابلة للمناقشة ، وهى ترحب بكل تعليق أو رد يصلها فى الموضوع •

محمـد زنيبـر

صوت العجوز

(أقصوصة)

في دروب المنسيين رنت خطواته فوق أشـلاء الزقاق المهمـل وأرقصته فوق أحجاره رقصة عشوائية اعتاد أن يخرج منها سالمـا ويتناساها كلما اقترب من المنعطف حيث تطل عليه ابتسامة من نافذة لا باب لها ، انها بداية الحياة ، ووراءه تربض الدور القديمـة ذات الحيطان الصفر التي هجرها أصحابها منذ زمان ، وظهرت فيها انسانية جديدة كثيرة الصراخ ، كثيرة الاولاد ، قليلة الثياب • انه يستطيع الان أن يستنشق الهواء بملء رئتيه في هذا الشارع الجميل الـذي يكتنفه النخيل ويسمع فيه هدير البحر القريب • ولكن هل يستطيع أن ينصت لنفسه ؟ ان نفســه ليس لها أي حديث تفضي به اليــه • فالصمت شامل في الداخل والخارج والنــاس يمـرون كالاشبـاح المتحركة وينظرون اليه بعين يشع منها الحذر • أوراق النخيل وحدها هي التي لاتزال تعيش وتنتشي بالحياة حين تهوم مع خطرة النسيم•

ومع ذلك ، فما زال صوت يـدوي وراء أذنه ، صـوت حاد ، مرتعش ، ساخط ، صوت تجمعت فيه كل ما بقي في الجسم من قوى الحقد والكراهية والفتـك ، صوت يلاحقـه ويزعجه ويستمع اليـه صابرا ، مستسلما • انه صوت العجوز التي ظلت في البيت تغلـي وتفور كاللبوءة في قفصها :

«الام سنبقى فى هذه «الخربة» تقطر علينا السيول وترقص فوق جسومنا الفيران ؟ كل أولاد الناس رحلوا ولم يبق هنا الا من هب ودب من الخيام !

ـ انهم بشر مثلى ومثلك •

ـ بشر ! بشر ! ومن سرق كسوتك وجلابيتى ؟! ومن سرق الصينية و «البراد» عندما خرجت للحمام ؟! انه ! هؤلاء هم البشر !

ـ السرقة فى كل مكان ، يا أماه • وهى فى البيوت الجميلة أكثر منها فى البيوت البالية •

ـ ايه ! كل هذا لنبقى هنا حتى تنهار فوق رؤوسنا الحيطان !

ـ وماذا أفعل ، يا أماه ؟

ـ تفعل ما يفعل أولاد الناس ، تسترزق وتربى المال • وتترك عنك الطيش والجنون • هذه هى المرة الثالثة التى تطرد فيها من عملك • لماذا ؟ لماذا ؟

ـ لانى مظلوم •

ـ مظلوم ! أنا أقول لك لماذا • لأن لسانك يحرقك ويشويك • انك لاتحترم من هو أكبر منك ولا تتأدب مع رؤسائك • وتدخل فى الفضول ، وتصلح قضايا الناس وتفسد مصالحك ! تريد أن تصلح الدنيا ؟ خلنى أضحك ! أنظر الى سريرك المكسور ، ألا تبتدىء باصلاحه هو الاول ؟ أنظر الى أمك المريضة ، ألا تقوم بعلاجها ؟ أنظر الى لحيتك الكثة والى شعرك المشعث والى هيئتك ، ألا تهتم بذلك ؟!

ـ كل هذا لاشىء ، يا أماه ، بالنسبة للبؤس والتعاسة اللذين يعيش فيهما كثير من الناس • اننا سعداء بالقياس اليهم • فكرى فى الكثير ممن لايحصل قوته • فكرى فيمن يمشون حفاة أيام البرد ، فكرى فيمن لا مأوى لهم يأوون اليه فى الليل • فكرى فيمن يموتون دون أن يراهم الطبيب •

ـ هل تريد أن تصبح مولاى عبد القادر فى هذا الزمان ؟

ـ ولم لا ؟ وهل مولاى عبد القادر الا بشر مثل الناس ؟

ويمضى الصوت المرتعش يرشه ويرشقه الى أن تتهاوى العجوز على فراشها المغور وقد خنقها السعال واحتقن وجهها المتجعد ، بينما اصبعها المرتعد لايزال يشير اليه ويواصل ما تقطع من كلام • وتنزل الحياة ببلسمها على كل هاته الجراح من فوق رؤوس النخيل المترنح• انه يخرج ليتطلع اليها بعد أن يرش الوجه المحتقن ويغطى الجسد المضطرب •

ولكن ، ألا يوجد فى الحياة شىء غير الحياة مع الاموات ؟ ألا يوجد فيها حب يتجدد ؟ ألا يوجد فيها ضفاف مخضرة وأعشاب ندية عطرة ؟ نعم ، نعم ! يجب أن نصل الى تلك الضفاف ! ولكن ، متى ، وقد وقفت دونها أجساد عمياء ، وأضلت عنها عقول شوهاء !

انه لم يعد يسمع الا خطواته التى ترن بقوة على رخام الرصيف، متتابعة ، متسارعة ، كأنه يسير الى موعد مهم • لقد وصل الى نهاية الطريق الطويلة ، ولا زال الصوت المرتعش يدوى وراء أذنه : «متى تصير كأولاد الناس تسترزق ، وتتزوج و٠٠ و ٠٠! » •

وفى وسط الساحة الهادئة ، المطلة على البحر ، لاح له سطح مقهى ، كالواحة الظليلة فى طريق الفرار فقادته خطواته اليها •

[– × –]

ولمح وهو يقعد أن دخوله أثار الانتباه • وكان هنالك شابان وسيمان انيقان يطويان شفتيهما على ابتسامة ساخرة ويتهامسان بحيوية فيما بينهما ويسترقان اليه النظر • لقد ألف هذا الهمس حواليه منذ أن حشر فضوله فى اصلاح الدنيا ورفض ما يقبله الجميع• حتى النادل لما تقدم اليه أخذ يتفرس فيه بنظرة لاتخلو من استنكار

وسأله عما يريد بلهجة متوترة جافة ، كأنه سائل يمد يده • وقد ألف هذا ، أيضا ، في هذه المدينة الجاثمة فوق أشلاء ماضيها المتناثرة •

وأتاه النادل بالقهوة • وذكر فجأة الرسالة التي أدخل في جيبه منذ أيام ، دون أن يفتحها • فأخرجها وقد تلوت وتثنت • لقد كان الظرف فاخرا ناعما وبداخله دعوة بحروف مذهبة أنيقة • وكاد يلقى بالكل في سلة المهملات لولا أنه انتبه للاسم المكتوب بحروف بارزة • انه أحسن أصدقائه لما كان في الخارج • هو ، أيضا ، يعود الى عقله بعد طول غياب و «يفعل كما يفعل أولاد الناس» فيصطف في زمـرة المتزوجين ويفرح بنفسه وسط جموع المهنئين وأصحاب الجلاليـب العطرة والجاكيتات الثمينة ، على أنغام الآلة وأصوات الطبول والمزامير وزغاريد النساء !

ولكن ، كيف اتجه التفكير الى دعوته هو الذي لايدعوه أحد ، ولا يعترف بوجوده الا أصدقاء قلائل ؟ أليست هناك مكيدة للضحك منه وعليه ؟ ألا يكون أولئك المدعوون الابرار في جلابيبهم العطـرة وجاكيتاتهم الفخمة في حاجة الى رؤية مخلوق عجيب مثله يتنـدرون برؤيته بعد سماع دور من أدوار الآلة ؟ ومن لهم بحيوان سيرك وادع يدور بينهم وسط حلقات العرس وقد بهتته الالوان والاضواء في ذلك المجتمع الصاخب اللاهي ؟ أو لعلهم حينما يستحضرونه في محفلهـم الراقي ويتخذون منه أضحوكة الساعة يريدون أن يسحقوا من ورائه الفكرة التي تخيفهم ، أن يؤكدوا لانفسهم وهم يرون شكله وهيئته انهم ، بدون منازع ، أرباب الجمال والاناقة والوضاءة ؟

ولكن صديقه صاحب الدعوة لايستطيع أن يلعب معه مثل هذه الالاعيب • لقد ربطت بينهما آصرة وثيقة قديمة التقى فيها العقـل بالعقل والقلب بالقلب • وكان صاحبه ثائرا أكثر منه يرفض كـل شيء ،، ويحلم بحياة جديدة ويسخر ويمتعض ، صباح مساء ، من كل ما يشاهد حواليه ويدافع عن كل من بدرت منه خطرة من القلـق أو

الشذوذ • ولم تفتر تلك الرابطة الا منذ أن انشغل كل منهما بشغله• أليس من الطبيعي أن يذكره في هاته المناسبة الفريدة ويدعوه كصديق قديم ؟

ونقد النادل الثمن ونهض يخطو خارج المقهى • هل يلبي الدعوة ؟ ما دامت الاولى ولعلها الاخيرة من نوعها ، فلم يرفض ؟ ولعل صديقه احتاج الى شيء كثير من الشجاعة ليقنع الاسرة بدعوته • ولعله ــ وهذا أيضا محتمل ــ أراد أن يلوح له ، ولو من بعيد ، أنه لا زال على «العهد» • ومن يطلعك على الحقيقة وسط فنون النفاق التي برع فيها أهل البلدة ؟

وكيفما كان الحال ، لم يحجم عن تلبية الدعوة ؟ ماذا يخشى وممن يخاف ؟ هل يتهيب اللقاء مع أولئك السادة المترفين وهل تكبر في عينه كساهم الانيقة ومظاهر «عظمتهم» ؟ أليس هو المستقبل الذي يلحق الحاضر بالماضي ويفرض فتوته على الزمان ؟ ولحد الساعة في تاريخ البلدة ، لم يجرؤ أحد أن يقول لتلك الاشباح المترنحة وسط تخمة الرفاهية ، المنتشية بعجبها وكبريائها ، من هم ، وما حقيقتهم وقيمتهم •

سيلبي الدعوة ، اذن ، ويذهب اليها توا ، وفي هيئته تلك ، دون حلق ولا تجميل ، هيئة الواقع ، هيئة الصدق التي لاتخدع أحدا ، ولا تبهرج ولا تموه • وقادته خطوات عازمة صارمة نحو بيت العرس • أنوار متلألئة في الباب وفي جوانب الحديقة وعلى دائرة السطوح • سيارات تتماوج ألوانها حول الفيلا • انها دائما نفس الاشياء ونفس الوجوه ونفس الحركات • نفس القصة تعاد من جديد بفصولها ومشاهدها منذ أكثر من ألف سنة • وفي السماء تضحك النجوم من البشر ومن دعواهم في التطور : «انكم لم تتطوروا • انكم تعيشون في الحاضر الازلي !» • انه اليوم الموعود بالنسبة لكل من لاينتظر شيئا آخر من الحياة !

وفي الباب استقبله أبو العريس وأعمامه واخوته بوجوه جادة مفعمة بأهمية الموقف وجلال الامر • لقد تجندوا في ذلك المكان بكامل المسؤولية كأنهم يقودون معركة مصيرية • وطلب منهم أن يرى العريس ليهنئه ، فقيل له ، وسط بسمة ساخرة ، انه في تلك اللحظة منشغل باستقبال بعض الشخصيات وأنه سيمر على المدعوين ليصافحهم ، وأشاروا له بالتفضل الى احدى القاعات • وبدون أن يتحرك من مكانه ، نظر اليهم داخل عيونهم وقال : «أرى أنكم نجحتم في تغييره !» •

واحمر وجه الاب لدى سماع هذه الملاحظة وهم بأن يقول شيئا ، لكن قدوم بعض المدعوين صرفه عن ذلك • ولم ينتظر صاحبنا الجواب ، بل تقدم داخل البيت ، وهو يشعر بنظرات الاستخفاف تنطلق من عدة عيون متماثلة لتطعنه من وراء ظهره ، وتنفس عليه الهواء الذي يشم ، والحيز الذي يشغل • عيون تنظر اليه ، وسط هذا المجتمع ، كالخطأ المطبعي المندس في فصول تسيل سلاسة وعذوبة • نعم ، كان يرى تلك العيون تخترق ظهره مثل السهام المسمومة وهو يدلف الى مقعد يستريح فيه • وفي الحين هرول نحوه أحد مرتزقة المناسبة ، فسار به نحو قاعة في طرف البيت •

[— × —]

ووجد نفسه في قاعة شبيهة بمرآب حشر فيها أخلاط من سائقي السيارات وشواش الادارات والبستانيين العاملين في حدائق المديرين والمديرات والفقراء من أقرب العريس وبعض طفيليي البلد • ولاول مرة شعر بارتياح في هذا النهار ، فأشعل سيجارة بينما الكل ينظر اليه متعجبا ومتسائلا • فحضوره في هذا المكان لم يظهر لهم طبيعيا • لقد استيقظ في نفسهم ، آنذاك ، الاحساس بالفوارق الطبقية التي اعتادوا أن يقبلوها في استسلام • وبرغم لبسته المهملة ففي وجهه ما يدل على أنه «فقيه» أو «مثقف» أي رجل جدير بمكان أرفع من هذا !

وأخذ مكانه وسط جماعة الكادحين والمحرومين الذين لاتصلهم من متعة الحفلة الا أصداء نائية ومتقطعة من «الآلة» • والكل ينتظر الاتاى والحلوى منذ أزيد من ساعة • وكان هذا مدار حديثهم ونكتهم • لقد مرت أمامهم الاطباق الفضية ذات القباب المنقوشة يحملها رتل من الرجال ذوى السواعد ويركضون بها فى حركة مسرحية نحو الردهات الداخلية ، حيث يجلس السادة الاجلاء على أرائكهم مثل البزاة والصقور !

ولكى يقتلوا الوقت فى انتظار الاتاى والحلوى ، كان أحد السائقين يقص عليهم بعض الحكايات الشعبية عن مكايد النساء وحيلهن ، بينما تعاليق الحضور تنبع من هنا وهناك • وكان الحديث عن النساء قمينا بأن ينسى الاتاى وما ينجر معه •

واذا بالخدم يدخلون عليهم بالصينية وطبق الحلوى ومن ورائهم أحد المكلفين بالحفلة جاء ليعتذر فقال :

«سامحونى ، أيها السادة ، كان لابد أن نسبق بعض المدعوين الكبار • أما أنتم ، فأولاد الدار • وقد أتيناكم بالصينية لتصنعوا الاتاى لانفسكم ، فهل فيكم من يتطوع ؟» •

ونظر البعض للبعض فى تردد • ومرت لحظة صمت • وحينذاك نطق صاحبنا من زاويته :

«أنا أصنع لهم الاتاى ، فهاتوا الادوات» • وتوقف المكلف مبهوتا • هو ، أيضا ، لم يكن ينتظر وجود مثل هذا الشخص هنا ، فأحرى أن يشتغل بصنع الاتاى للجماعة • ولكنه أمر الخدم بأن يحطوا الصينية أمامه وانسحب •

وانبرى يحضر الاتاى بتؤدة • وما فتح البراد ، حتى تعالت الاصوات : «أكثر الاتاى ، يا فقيه !» وفاحت رائحة الكيف ، وامتدت الانظار شرهة الى صاحب السبسي • وانقطع صاحب القصة عن

حكايته • ولما استوى الكل داخل البراد ، صار «الفقيه» يذوق ويذيق حواليه • لقد كان الاتاي على وفق المراد •

وتهللت وجوه المنتظرين لرؤية السائل الاصفر يتدفق حـارا داخل الاكواب • واستلت «سباسي» أخرى من أغمادها وتعالى دخانها في الهواء يدور دورات لولبية ، بينما أصداء الآلة تصل متسارعـة راقصة وهي تنذر بقرب نهاية الدور •

[— × —]

واذا بالعريس يدخل بغتة الى القاعة في بذلته السوداء القاتمة، وعبق المكان بشذا عطر نفيس • وتعالت الاصوات : «بايع ! بايـع ! الله يبارك في عمر سيدي !» • وجاء معه والده ، فتقدم الى «الفقيه» وكان في حالة ارتباك ويده ترتعش وقال بصوت متعلثم :

«سامحني ، يا سي عزيز •• وقع خطأ في حقك •• مكانـك ليس هنا •• لقد أخطأ المكلف • تفضل معنا الى قاعة المدعوين •

فأجابه الآخر ، بكل هدوء وانطلاق : «وهؤلاء الذين أنا معهـم الان ، أليسوا بمدعوين ؟••

— نعم •• نعم •• ولكن أقصد المدعوين من •• من •• أقرانك ثم التفت الاب الى ولده وقال له ، وقد جف ريقه :

— تكلم ، يا مفضل ، مع صديقك •

وانسحب الاب ، وقد أخذ العرق يتقاطر من جبينه ، بينمـا اقترب العريس من عزيز وأخذ يربت على كتفه ويقول بصوت يحاول أن يكون طبيعيا وعائليا :

هيه ، يا عزيز ! أبيت الا أن تجرب معي احدى مداعباتـك القديمة !؟•• وأنت تعلم أنني ، اليوم ، غير متفرغ لمباراتك في مثل هذا المزاح !

فأجابه عزيز ، جادا ، رصينا : ليس هناك أى مـزاح ولا أى شىء • لقد دعوتنى ، فجئت ملبيا • وهل تريد أكثر من هذا ؟

ـ ولكن ••

ـ انك تعقد ما هو بسيط • انى لا أرى أى مشكلة ، ويمكن أن تكون مستريحا من جهتى • فها أنا ذا حاضر لعرسـك ، فـرح لفرحك •

ـ ولكنى ، كنت أود أن أقدمك لبعض الاصدقاء ، وأجلسك فى المكان اللائق بك •

ـ لننظر الى الامر بجد • هل تستطيع أن تقدمنى لاصدقائك وأنا فى هذه اللبسة المتواضعة ؟!

ـهذه قصة «كل يا كمى» تعاد من جديد فى عصرنا هذا !

وانطلق الضحك فى القاعة ، مشفوعا بالتحيـة التقليديـة : «بايع ! بايع ! الله يبارك فى عمر سيدى !» •

ـ وهل تظن ، يا مفضل ، أن قصة «كل يا كمى» انتهت مـن الدنيا ؟

ـ المناقشة طويلة فى هذا الموضوع ، يا عزيز ، وليس هـذا وقتها •• تعال معى أقدمك لاصدقاء يعجبونك •

ـ لا مانع عندى ، ولكن ، على شرط •

ـ وما هو ؟

ـ أن تتركنى أجلس حيث أريد •

ـ لك ذلك •

ـ وخرج الاثنان من القاعة ، بينما الاصوات تهتف من جديد :

«بايع ! بايع ! الله يبارك فى عمر سيدى !» ٠

[- × -]

عادت الموسيقى ، من جديد ، تردد الانغام التى طرب عليها هارون الرشيد فى بغداد والمعتمد فى اشبيلية ، وانهارت وراءها قصور واندكت مدن ، وبقيت وحدها تقص حكايات تلك الليالى الغابرة وتحاول أن تنعش فى النفوس تلك البقايا الهامدة من غرور بالحياة والزمان ٠ والعروس وصاحبه يسيران جنبا الى جنب ، كل منهما ينصت لهواجسه ٠ ووصلا الى الردهة الكبيرة ٠ كانت رائحة البخور تتضوع من أبوابها ٠ والتفت مفضل الى عزيز وقال: «هل تريد أن تدخل الى هذه القاعة ؟ فهنا الشرفاء والكبراء وأعيان البلد» ٠

واسترق عزيز النظر الى داخل الردهة ٠ وجوه جادة وأصوات خافتة وحركات عفيفة وعيون لاتكاد تبصر ما حولها ٠ وفى صدر المكان شيخ وقور ذو لحية مسبلة وفى يده سبحة تعبث بها أنامله ، وهو يحادث جارا له دون أن يلتفت اليه ٠ والخدم يروحون ويغدون بخفة لتلبية كل طلب وتحقيق كل رغبة ٠

والتفت عزيز الى صاحبه قائلا : المنظر جميل ، حقا ، ولكننى أفضل أن أذهب الى مكان آخر ٠

ومشيا خطوات أخرى ، فوجدا نفسهما أمام قاعة ثانية ٠ وبادر مفضل قائلا : أظن أن هذه القاعة لاتعجبك أيضا ٠ ففيها أصحاب الوالد ومعارفه من التجار ورجال الاعمال ٠

ـ بالعكس ، بالعكس ، يا عزيز ! انى أجدهم أكثر حياة من السابقين ٠ انهم، على الاقل ، يعبرون بضحكم وحركات ملامحهم عما يعجبهم وما لايعجبهم ٠ انهم يقدمون أنفسهم كما هم ولا يحاولون ان يخدعوك بمظاهر مزيفة ٠

– واذن ، تريد أن تقعد معهم ؟

– ان تقديرى لهم لايصل الى هذا الحد • وأفضل أن نذهب الى مكان آخر •

وتقدما نحو باب تطل على روض • وفي باحته مقاعد كثيرة وحشر من المدعوين • ولدى رؤية العريس ، قام البعض منهم يؤدى له التحية باشارات حارة بليغة • وقال مفضل لرفيقه : «انهم بعض المستخدمين فى المتاجر وصغار التجار» •

– وتجد من الطبيعى ، يا مفضل ، أن تفرق بين الناس على هاته الصورة •

واحمر وجه الآخر وقال : انه لا يد لى فى ذلك ، يا عزيز • فالكل من عمل والدى وتنظيمه •

– يعنى أنك تخليت عن كل مسؤولية •

– انك لاتستطيع أن تفهم الموقف ، يا عزيز • انى أحب ، ولا حيلة لى غير التفاهم مع الوالد • انه يقوم لى بكل شيء •

– والمقابل ، طبعا ، أن تكون ولدا سميعا مطيعا ، يعنى «تفعل كما يفعل أولاد الناس» •

وانطلق الآخر فى ضحكة تكاد تكون طبيعية وقال : «آه ، يا عزيز ! ما أقدرك على تعقيد الامور البسيطة ! وهل يوجد شيء أكثر طبيعية ومشروعية من الزواج ؟ ألا يستحق الامر شيئا من الاحتفال واظهار الفرح ؟» •

– انك تذكرنى بمدونة القانون •

وغير العريس الموضوع وقال : «الان سأقدمك لجماعة لاشك أنها تعجبك • انهم بعض شباب المدينة» •

وسارا من ممر طويل وصعدا في درج الى أن وصلا الـى باب وطرق مفضل طرقتين خفيفتين • وفتحت الباب في الحين على قاعة أكثرها نوافذ وشرفات • وفي ركن منها «بار» وموسيقى الجاز تدوى بايقاعها الجنوني • والقوم في شغل عن كل شيء برقصهم • كـان هنالك فتيان وفتيات ، كلهم في مقتبل العمر وريعان الشباب •

وبعد انتهاء القطعة الموسيقية ، تهافتوا على البار يملأون الاكواب ويحتسونها بسرعة • وبعد ذلك رجعوا الى العريس وصاحبه وتحلقوا حولهما ، ونطقت فتاة جريئة الصوت : «آه ، يا مفضل ، انه صاحبك الذى طالما حدثتنا عنه» •

واردفها ثان : لاشك أنه الفيلسوف الذى يريـد أن يصلـح المجتمع •

وتبعه ثالث ، وقد بدت على وجهه علامات السكر : أنظر الـى حالنا ، نحن الشباب ، اننا فى حاجة الى اصلاح •

وتدخل مفضل : ولكن ، صافحوا الرجل ، أولا ، وتعرفوا عليه!

وتقدمت نحوه فتاة مدللة جميلة : لعل الاستاذ يقبل أن يرقص معى ؟

وأجاب عزيز : وقد ظل هادئا باسما أثناء هذا اللقاء الصاخب : انني لا أحسن الرقص أيتها الآنسة •

ـ لعل فلسفتك تحرمه •

ـ سأتعلمه يوم تنجح فلسفتي ولو كنت شيخا هرما •

ـ ستكون ، اذن ، رقصة الانتصار •

ـ نعم ، هو ذاك بعينه •

ـ ولكننا ، نحن أبناء هذا الجيل ، نرقص رقصة الانهـزام ،

نرقص لننسى ونطلق العنان لاجسامنا عساها تجد شيئا من الراحة في الحركة ٠

واستدرك شاب تحيط بوجهه لحية جميلة : ثم اننا ، والحق يقال ، لاننتظر أي انتصار ٠

وانطلقت الموسيقى ، من جديد ، فانفض القوم عن العريس وصاحبه بسرعة خاطفة وعادوا الى الرقص من جديد ٠ وقال عزيز لصاحبه : أستطيع أن أحلف لك أني ما لقيت واحدا من هؤلاء الشبان في الشارع ٠

ـ وكيف تراهم وهم دائما في سياراتهم قد آثروا أن يخففوا الوطء بأقدامهم على الارض ٠ ترى هذا الشاب صاحب اللحية الذي حدثك في الاخير ، انه ابن ذلك الشيخ الوقور الذي رأيته في الردهة الاولى بسبحته ، وتلك الفتاة التي اقترحت عليك أن ترقص معها أخته والفتاة التي حدثتك ، في الاول ، بنت ذلك الشريف الذي يقعد بجنب الشيخ ، وذلك الشاب الثمل ، انه ابن امام المسجد الاعظم ٠ والساقي المكلف بالبار هو أصغر أولاد القاضي ٠ وآخرون وأخريات هنا من أولاد التجار أصحاب أبي ٠

ـ أظن ، يا مفضل ، انني أكتفي بهذا القدر وأنسحب ٠

ـ ولكن ، لايمكن أن تذهب هكذا دون أن تشرب شيئا ٠

ـ ليس بضروري ٠

ـ ولكن ، لابد من أن تقعد معنا في مكان ٠

ـ هذا ما سأفعل ٠

ـ وأين ؟

ـ لاتنس الشرط الذي بيننا ٠

ـ طبعا ٠

ـ انى أفضل أن أعود الى القاعة الاولى التى وجدتنى بها ٠

ـ مع الشواش و «الشوفورات» والمساكين و ٠٠

ـ نعم ، مع الشواش و «الشوفورات» والمساكين ٠

سلا ـ محمد زنيبر

احمد زيادي

وقوع الطائر في المصيدة

(أقصوصة)

ما أشقاك أيها الملقى بين الحشائش ! ما أشقاك وأنت تفتح عينيك عن آخرهما ، توشك أن تمزق اللخطين والموؤقين ، تتربص بأعدائك في هذه الظلمة الحالكة الغامضة ، تتسمع دبيب النمل ، حتى ليخيل اليك أن أذنيك تتمددان لتلتقطا الهمسات ، تكاد تردهما بيديك مخافة أن تدلا على موضعك .

ما أشقاك أيها البئيس وأنت تبلل شفتيك الجافتين بعذبة لسانك ، فتسمع صوت ارتطام لسانك بجدران تجويفك الفموى ، كأنه صوت انكسار أعواد تبن يابسة .

وتترامى اليك بعض القهقهات العائمة على سطح الصمت ، من مكان ما ، تتلاعب بها أكف الريح ، بين أغصان هذه الاجمة المتشابكة، قبل أن تلقى بها فى أذنيك ، تصيخ السمع أكثر ، لكنك لاتسمع الا صوتها المشروخ ، وهى تبكى وتستغيث :

ـ اتركونى .. اتركونى .. اعتقوا الروح يا عباد الله .. اعتقـ ...

وتنتفض كالطائر المقصوص الجناحين ، تصرخ بأعلى صوتك :

ـ اتركوا زوجتى .. اتركوا زو ...

وتنهال عليك صفعات لست تدرى مصدرها ، الظلمة تخفى عنك الاعداء ، وتلف زوجتك المسكينة في ثوب حداد ، وأنت تجرد من كل

شيء ، ويداك تعقفان الى الخلف بوحشية ، وعصابة عريضة تسد فمك ، وجزءا من أنفك ، فترى طائر الموت يحوم حول جثتك منتظرا سقوطها بعد دقائق ، وتسمع نحيبها المتقطع ، وتأوهاتها الممزقة ، والاشباح تعلو وتهبط ، تقوم وتعود ، فتضرب الارض برجليك ، تتمرغ وسط الحشائش ، يداك مربوطتان الى ظهرك ، الدم يغلي في عروقك كالحمم ، فتحس لاول مرة في تاريخ البشرية بالعجز التام ، تتشهى الموت : ما قيمة الحياة حينما يحس الانسان بالعجز الكلي ؟! بل ما قيمة الانسان حينما لايقوى على الدفاع عن كرامته ؟! .

وتتبين أذناك قرقعة بعض العيدان تحت وقع أقدام متجهة نحوك ، تواري جسمك المهتز وراء الحشائش ، تمسك السكين بيدك المرتجفة مشهورا ، تسدده ناحية الصوت ، القرقعة تزداد قربا ، تتوقع في لحظة وشيكة جدا أن تدوسك أقدام مجهولة ، وأن تنشب معركة ضارية بينك وبين أصحابها المجهولين ، و ٠٠ و ٠٠

تتوقف الاقدام فجأة ، بصاق ، ضرط ، خرخرة بول ، زفرة جادة ، ضرط ، رائحة كريهة تزكم أنفك ، تسده بسبابتك وابهامك ، تغمض عينيك ، خشخشة ، ثم قرقعة عيدان ، وأقدام يتناقص وقعها الى أن يتلاشى نهائيا ، ويذوب في الصمت ٠

تبصق ، تتنفس ببطء : «آه ما أبشعك أيتها الحياة ــ المزبلة ، تبشين فينا ــ على كثرتنا وقوتنا مجتمعين ــ سمومك الفتاكة ، وتتركينا غارقين في همومنا ، كل واحد منا يحتضر منفردا ، كما لو كان هو المذنب الوحيد في عالمك النتن» ٠ تتنهد بعمق ، زفيرك دخان ، النيران تضطرم في داخلك : زوجتك في المستشفى تتأرجح بين عمودين ، أحدهما من نور ، والآخر من ظلام ، والطفل المترقب يغرق في لجة من الصديد ، ونصف قنينة حامض بالقرب من الفراش يدعوك ، لكنك لاتسلم له نفسك في تلك اللحظة على الاقل ٠ وتهزك الذكرى ، تهم بأن تتحامل على نفسك لتعود ، بيد أن صفحة بيضاء

تسطع في ذهنك ، تبرز كلماتها شيئا فشيئا حتى تبدو أمامك واضحة جلية قوية كأنها مكتوبة بالصخر :

«كانت قوات العدا المتقدمة من الناحية الشمالية قد وصلت الى منتصف البلدة ، وهي مشتبكة مع نيران مدفعية الهاون ، وعندما وصلت أول بادية الى مواجهة أول مفترق طرق داخل المدينة ، قفز (ربحي) عليها ، وقد حمل قنبلتي (ميلز) بيديه ، وربط حزاما ناسفا على وسطه ، وتفجرت الدبابة بمن فيها ..» (١) .

فتطرد فكرة العودة من ذهنك ، وتعود الى مراقبة تلك الناحية الخطرة محملقا متسمعا ، وتترامى اليك أصواتهم ، فتنشب أظافرك في الارض .. وتصم أذنيك قهقهاتهم وهم ينصرفون ، فتجمع ماتبقى لديك من طاقة ، تقف : المدينة القديمة غافية على بعد يسير تحت أضواء مصابيحها المسهدة لاتعرف بمأساتك ، صهرك الذى ودعته قبل قليل يسلم نفسه لنوم لذيذ ، حماتك تدغدغها أنامل السعادة وقد اطمأنت على حياة ابنتها الوحيدة . كم ضحكتم ، وكم تسليتم بسذاجتها .. لو علم صهرك بما تعرضت له ابنته أمامك لرفس الارض برجليه ، وبصق في وجهك صائحا :

« ـ أنت لست رجلا ، رحم الله زمان الرجال ، كان الرجل يقتل بالرجل اذا تردد اسم زوجته على لسانه ، واليوم ، ها هي زوجتك تنـ ..» .

وتأبى أن تتمم التفكير في ما وقع ، تحرك رأسك بقوة محاولا نفضه من القصة ـ المأساة . وتلوح لعينيك الغائمتين المدينة الجديدة في الناحية المقابلة : الاضواء تتلألأ كالنجوم في ليلة سوداء كهذه ، الازقة هناك مليئة بالمارة والمحبين والمتجولين والعائدين الى بيوتهم في

---

١ ـ معركة الكرامة : حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» عدد ٤ أبريل ١٩٦٨ ص : ٣٥ .

أمان ، وأنت المغلوب على أمره يقع عليك الاختيار الجائر لتمثل دورا أكبر متأزم في التاريخ •

تعض شفتك السفلى ، تكاد تدفيها ، لو تنشق الارض ، لارحت نفسك فيها • تحس بعدم قدرتك على استيعاب الاحداث : لماذا وقع ما وقع ؟ لماذا كنت أنت بالضبط الضحية ؟ لماذا ركبتك تلك الرغبة الجامحة المعاندة فاستصغرت المخلطر ، وتحديت المخاوف ، وغامرت وسرت في ذلك المعبر المعلق في الهواء المحاط بالمهاوى والمزالق الفاصل ما بين المدينة الجديدة ، والمدينة القديمة ، واثق الخطى ، رغم نصيحة صهرك ، وتوسلات حماتك والحاحها على قضاء الليلة معهم ، ورغم ما تعرفه أنت نفسك عن تلك المنطقة من أنها تتحول في الليل الى مذبحة و •• و ••

لاتكاد تجد جوابا على أسئلتك المحيرة ، تحاول أن تريح نفسك، تتكىء على جذع نخلة غرسها أجداد أجدادك في باحة عمرق الضيق «انه المكتوب» ، لكنك سرعان ما تنتصب قائما كالملسوع ، تتطلع الى النخلة الباسقة ، ظلالها الطويلة تنتشر في الارجاء ، فتنتابك لحظة ضيق واختناق ، انها توشك أن تسد فراغ الفسحة بل توشك أن تخنق جوفها •

تعقد يديك وراء ظهرك ، تنسج برجليك على أديم الارض خطوطا منكسرة ، وأخرى مستقيمة ، تخط نقطا وعلامات استفهام وتعجب ، مأساتك أكبر من أن تنسى ، وفضيحتك أوسع من أن تستتر • عما قليل تدخل التاريخ المجاني ، تصبح مضرب الامثال ، في كل زقاق تمر به تسمع وراء الابواب والنوافذ ، بل وحتى على الارصفة ، وفي عرض الطريق ، النساء والاطفال والرجال يتهامسون :

« ـ هذا هو الرجل الذي نكـ •• زوجته أمامه ، ولم يفعل شيئا» •

تتوقف عن المشى ، تصيح رافعا يديك محتجا ، مستفسرا ومستنكرا ومتجهما :

«وماذا عسانى أن أفعل ؟ ألا تروننى مكتوف اليدين ، مخصى الشفتين ، مجردا من كل انسانيتى ، مفرغا من كل طاقاتى ؟» :

وتتنهد ، وتنشد :

لو كان للدهر بلى أبليته   أو كان قرنى واحدا كفيته (١)

ثم تخفف من حدة كلامك ، وترسل كلاما كالهمس كالتوسل ، كالانين :

«أنا مأخوذ على حين غرة ، أنا مغدور يا ناس ، كرامتى !! اننى أحس بثقلها ، لكن أين هى الكرامة ؟! انها لاتعدو أن تكون قيمة مجردة نؤمن بها ، لكننا لانتفق عليها ، لانها محفوفة باطار النسبية المرة ٠

حقيقة مأساتى يا ناس ، تكمن فى أنى لم أكن فى مستوى المأساة ، أنا لست هو الذى ترونه الان ، هذا مجرد ممثل يقوم بدور مأساوى مفروض عليه ، هو دور المتأزم ، ولو كان له الحق فى الرفض والاختيار لرفضه واختار دورا فى العصيان ٠ لكن الاختيار ليس من حقه ، وهكذا ألبست دور المتأزم رغما عنى ، وهو عادة دور يتطلب من صاحبه أن يكون طويل الوجوم والشرود ، شديد الانعزال ، عميق الانطواء ، مضطرب الفكر ، كثير الهواجس ، قليل الثقة بالناس ، بعيد الخيال ، كئيب المرأى ، وبصفة عامة رومانسيا سلبيا فاشلا يحرق أعصابه وينتحر ببطء ٠

ولم يسند الى دور العاصى لانه يستدعى منى أن أكون مضطهدا والاضطهاد سيلهبنى الحماسة لاستمر فى عصيانى ، وهذا بالطبع

---

١ ــ البيت للشاعر الجاهلى : دريد بن زيد الحميرى ٠

سيدفعنى الى الحركة ، الى القيام بأعمال كثيرة لن يرضى عنها أبدا المعصى ، بل سيعتبرها تحد منى لشخصه ، وأعمالى الايجابية الوافرة هذه ستحفز أفرادا وطبقات على اعلان العصيان اقتداءا به ، وتعريا من طفيليات الذات ، وكل هذا سيقلق مخرج المسرحيــة ، وسيجعلـه يرتاب فى حقيقتى ، وهل أنا أمثل أم أننى أكشف عن شخصيتى ؟ بالاضافة الى أنه يعتبر حركات جماعية حتمية كهذه نوعا من الفوضى والاضطراب اللذين يهددان أمنه» •

وتخشى أن تكون خواطرك هذه مجرد تبريــر لانهزاميتــك ، فتعود الى سحق حيرتك وآلامك تحت خطواتك الثقيلة •• ويشــق خيمة الصمت المضروبة حولك صياح زوجتك ، تهرع نحوها ، فتلفيها مرمية على الارض ماسكة بقنينة حامض ، اذ ذاك تحس بحجم كرامتك يزداد كبرا ، حتى يوشك أن يكبر عن جلدك ، يمزقه ، وحينئذ يشمر فى نفسك العزم ، وتبحث عن الفأس التى لم تستعملها ولو مرة واحدة فى حياتك ، ثم تهرع ناحية النخلة المتطاولة الباسطة ظلالها على الكون وتهوى على الجذع بكل ما أوتيت من قوة •

— × —

سحب كثيفة تحجب عنك الضياء المتلألئة فى السماء ، الظلمة تبتلع كل شيء حولك ، يدك ، لو مددتها أمامك لما استبنتها ، عيناك تعصبها عصابة سوداء ، أذناك يصمها طنين الحشرات وأزيزهــا ، وركبتاك تؤلمانك ، تبدل الوضع ، غير أن التعب ما يلبث أن يتسرب الى رسغيك • فجأة تثير انتباهك أصوات خافتة وشوشات ، ثم تميز أذناك وقع خطوات خفيفة ، تراودك فكرة التخلص من هذا المــأزق الحرج ، وتعاودك الرغبة فى الانسحاب والعودة الى البيت بخفى حنين ومرة أخرى تنبسط أمامك صفحة منسية من دفتر مهمل ، وتطالعك منها صورة بطل عربى ، وتسمع صوتا غابرا يجلجل فى أذنك :

وان طلعت أولى العداة فنفـرة الى سلة من صارم الغرب باتك
اذا هزه فى وجه قرن تهللـت نواجذ أفواهالمنأيا الضواحك (١)

فتشرع سكينك ، وأنت ترتجف كالمغزل ، لقد حانت الفرصة التي ستولد فيها من جديد ، تستدير صوب الاصوات ، العزم ينفـخ فيك من قوة نوح بن عمرو (٢) ، وشجاعة قيس بن معد يكرب (٣) ، الوقع الخفيف يزداد قربا وقـوة ، وفى لحظة من تلـك اللحظـات الخاطفة الفاصلة يلمع ضوء مركز ، ومكثف فتعشـى عن الرؤيـة ، يبهرك الضوء فتوارى عينيك وراء ساعدك ، والسكين يتلألأ فى اليـد الاخرى كأنه شهاب يوشك أن يفقد توازنه ويسقط • وقبل أن تنتهى اللحظة تحس بقوة خارقة تلوى يديك الى الخلف ، ويضيع السكين ، وتمزق الصمت صيحتك المدوية ، فتمتد يد وحشية الى فمك تسده ، وفى لمح البرق يمر أمامك شريط التجربة السابقة بكل حدتها ، فتكاد رجلاك تخوران ، وجسمك ينهار ، غير أن تلك القوة الخفية تدفعك الى الامام ، فترمى برجليك غير مبال بالحفر والنتوءات ، وبجانبـك يسير شخصان يتحدثان الى شخص آخر يسير فى الامام •

وتجتازون المنطقة المظلمة ، ويبدو لك الزقاق الكبير مفروشـا بنور باهت ترسله مصابيح رمداء من أعلى الاعمدة المتراصة على جانبى

---

١ ـ البيتان لتأبط شرا فى مدح ابن عمه صخر بن مالك •

٢ ـ الذى يمدحه أبو تمام بقوله :

لا تدعون نـوح بن عمـرو دعـوة للخطـب ، الا ان يكـون جليـلا
ثبت المقـام يرى القبيلـة واحـدا ويـرى فيحسبـه القبيـل قبيـلا
لو ان طول قنانـة يوم الوغـى ميـل ، اذن نظم الفوارس ميـلا

٣ ـ هو الذى امتدحه الاعشى بقصيدة منها :

واذ تجـىء كتيبـة ملمومـة شهباء يخشى الدارعـون نزالهـا
كنت المقدم غير لابس جنـة بالسيف تضـرب معلمـا ابطالهـا

الزقاق ، وتلوح لك سيارة رسمية رابضة بجانب الرصيف مطفأة الانوار الا من ضوء أحمر مقرح كانت ترسله سيجارة محترقة وهي تنتقل من خارج النافذة الى فم شبح في الداخل ، حيث تتوهج ، ثم تأخذ في الخبو • اذ ذاك تدرك مصيرك المجهول ، وتتراءى لك درج ليست لها حدود تصعد تارة وتهبط أخرى ، وتتراءى لك زنزانات معتمة على جانبي ممر غير متناه ، ويترامى اليك وقع أقدام صلبة قوية ، وصرير أبواب تفتح وتغلق ، وصياح ، وأنين ، وبكاء ، فيجتاحك شعور قوي بالغثيان ، تغمض عينيك ، ترفع رأسك الى أعلى ، تملأ رئتيك بهواء الليل البارد المنعش الطلق ، استعدادا لليلك الطويل ، وينصب عليك شلال من عرق •

مبارك الدريبى

تحت عجلات الليل

(اقصوصة)

قرب النهر ، هناك ، عند منبت النخيل الساحر من نسمة الصحراء ، استيقظ الناى فى ليله الطويل ، ليعزف آخر نغمة بقيت فى صدره ، قبل فيضان النهر الكبير • انتصبت قامة الرجل الاسمر الداكن بلفح الشمس ومجاورة النهر فى السحر وصيد الاسماك التى تنحدر من البحر الى الدلتا • ومن الحنجرة سرت بحة دافئة تنتفض على لمسات الاصابع الخشنة والمتعبة من حرث الارض التى يملكها الاسياد • وقبل أن تصعد الى صدر النهر وأسماع النخيل الخاشع فى غبشة المساء ، البحة الاخيرة ، مات الرجل الاسمر الداكن • وبقى اللحن الخالد يسرى فى موجات الكون تائها ، حائرا وحزينا ثم محرقا • فكان الليل •

وكان الليل فى المدينة التى عمرتها هموم المعيشة التى تحياها الطبقة الكادحة والبطالة ومشاكل العائلة والاطفال والجنس والقهر النفسى ، ثقيلا ودسما كبقعة زيت ، أكبر مما تستطيع حمله صدور الرجال والنساء • فتفرقت كل جماعة على نفسها ، وتاه الافراد يبحثون عن بلسم ـ مؤقتا ـ ينسيهم وضعهم المخزى • فكان البار باضوائه الخافتة الرهيبة ، وبهمسه المستور الذى يوحى بالف سر وسر • استيقظت المدينة وتحركت السيارات الخصوصية • تحركت سيارات الاجرة فى سرعة جنونية ، وسائقوها يلعنون كل سائق بتؤدة • نشطت التجارة الليلية بالدكاكين والمتاجر الغافية تحت أضواء النيون المتعب ، بكل عطف أو زقاق • وازدحمت الشوارع

الساهرة على عيون الفوانيس ، بالمارة والبنطلون والميني جيب والخصلة النافرة من الشعر المستعار • بار «المركيز ذى لفاييت» كان نائما بين واجهة بائع الصناعة التقليدية ، قرب دكان لبيع لحم الحلوف والخمرة الرخيصة • مقهى «جاك بار» الانيق بفتياته المتفتحات أنوثة والصارخات أصواتا دافئة ، يرافقن جهاز الدجوبكس في أغنية لعبد الحليم ، ولاثارة فضول عشاق الليل والصدر العارى والساق العاجي • الكراسي ذات الطلاء الابيض ، حول موائدها ، هنا وهناك ، تقترب من الطوار المصطفة على خده السيارات • الاجسام مقوسة، مسترخية، متشنجة ، متحفزة لاقتناص الفرصة • العيـون تنظر • الـرؤوس تلتفت • الايدى تشعل السيجارات • الشفـاه تدخـن • الرؤوس فارغة ، تلتفت ثانية ثم تفكر في لا شـيء وفي كل شيء • صف سيارات الاجرة ينتظر الزبناء • السوق الاوروبي الكبير فاتح فمه ، ونوافذه في حفلة عرس الاضواء ، يلتهم الداخلين من الناس فيضحكة كبيرة • واجهة البار ذات مصراعين قليلا ما ينفتحا • الا مصـراع واحد هو الذى تعوده زبناء الليل والصباح الباكر ، ورواد مقهـى «المركيز ذى لفاييت» • صورة المركيز كشهادة غزو لهذه الارض ، على الجدار • أصلع الرأس بعض الشيء• أنف طويل كجرو بريطاني• يده اليمنى على قلبه ، كأنه يشكو من داء نابليون • سترة المركيـز ذات لون رمادى يميل قليلا الى الاحمر الغامق • نظرة خاملة ليهـود ابريطانيا • الصورة تتربع وسط انحناءة جدار صنع خصيصا لحمل صورة المركيز النائمة فوق المدفأة التى لم تستعمل في يوم ما ، الا في عهد الاجانب الفرنسيين • كان المقهى وبار «المركيـز ذى لفاييت» محرمين على أبناء الجلدة السمراء • كان لايسمح الا لجنود البحرية الفرنسية ، في كل حفلة تقام هناك أو في كل اجازة تمنح لهـم • وضعت خطوتي على باب مقهى المركيز ، وأشرق سؤال تافـه فـي صدرى : من أنا ؟ وأجابني دماغي التافه بلا مبالاة : أنت رجل متخلف وغير متحضر • وجد غلطا فأعطى له رقم ، ودفع به في دوامة الحياة • وعلى أكتافنا تغتني مصانعهم • ما أنا الا دابة تحلب • يؤكل لحمها •

ينتعل بجلدها . مقهورة الحق والمصير . تؤدى الضريبة ولا حق لها في ارتياد الشاطىء . الحرس هناك . من أنت ؟ ماذا تفعل هنا . هذا ممنوع عليك . وذاك ممنوع عليك . وذاك أيضا . كلنا في السجن الكبير . ندور كالدواب . ندفع عجلات مصانعهم . نموت جوعا كالكلاب الصغيرة . في صدري الحريق وأشياء أخرى صغيرة، تعذبني ، تدفعني لادخل . الحاجز الخشبي يلتوى على شكل صدر امرأة مسنة . ثديها الايسر أكبر من الايمن بفعل الخرق ، لتحارب السن ولتظهر بمظهر أنثى مرغوب فيها . خط النيون الباهت والمتعلقة به نفايات الذباب ، زاد من كثافة الظلمة وكذلك انحدار السقف ، لوجود بار صغير على ناصية المدخل مباشرة ، قرب تعريجة السلم الخشبي الصاعد الى أعلى . ظهر البار الصغير ، تستره عن أنظارنا خرقة بالية وقديمة ، مخضرة اللون وداكنة . أمام المدخنة الصامتة، يقبع جهاز «البيار» به ثلاث كرات فقط . فقدت أربع كرات أو ربما سرقت . يحاديه الدجوبكس في اطاره الزجاجي ، يغفو على كمشة أسطوانات في صف عسكري ، كالجنود ، جامد أمام كاميرا لمصور متجول يوم الاحد والاجازة ومطاردة المرأة والشعور بنكهة الجسد والعمر الغافي وراء ضباب أحلام الرجال . ضغطت يد سكرانة لرجل مسن على زر الدجوبكس . هامت أغنية متعبة من كثرة الاستعمال ، لكنها في هذه اللحظة ، كانت جديدة وكمرآة البار ، عكست شعور رواد المقهى والبار الصغير ، من حرمان وضيق يد ، وعدد في الاولاد، وحظوظ قليلة في الحياة . وسرى الدفء مترنحا يتبع موجات كل جرعة ، فيغطي الجروح وان لم يشفها نهائيا . وانبعث السرور الذى تبقى في زاوية ما من صدور هؤلاء البسطاء من مرشدين ومخبرين مفلسين ، لصوص . ملاكم متزوج وبلا قوة . هومار وآخر قواد ، وآخر يروج العطور الرخيصة وصانع أسنان لرواد البار ، عندما تشتد بهم الحاجة الى فقدان أسنانهم في عراك دموى . تحركت الرؤوس أكثر وتمايلت في دفء البار والمقهى التحتي . كان المطر في الخارج غزيرا، ثقيلا من تحت سماء كالحة الوجه وحزينة هي الاخرى .

الريح تصيح ، تموء بألف لسان ، لاترحم ولا تشبع ، لا تنام • عادت يد الرجل المسن الاسمر والداكن ، لتضغط من جديد على زر الدجوبكس • تحركت الرؤوس • اشتد اللغط • رقصت الارجل • تمايلت أجساد ورشفت الشفاه خمرة رخيصة ونارية • جلس جسد الرجل الداكن الميت قبل ذلك بألف سنة أو يزيد • خجلت عيناه وسقطت نظرتهما على صفحة كأسه التى تقبض ، تحنو وتربت عليها يد معروقة ، صلبة العصب ، محترقة الجلد وسوداء • انحنى الرأس وكان ثملا بعض الشيء ، تحت ثقل وزن العمر والذل وانحناءة الاحترام أمام الحكام والشيوخ ورجال الشرطة والاسياد وسلاطين البلد من الملاكين • لم يرفع رأسه يوما الى السماء ولا نظر الى النجوم الصغيرة والبعيدة فى سفرها الكونى • كان كالسمكة المريضة على الضفة • لم يسعفها صياد ، و لايد حكيمة • لاتعود الحياة الىالاسماك الميتة • تقوس الظاهر الذى ذاق الخشونة والقسوة والجوع والخلاء بيتا وغطاء ، قبل أن تلمسه عصى القوة المساعدة عند تفريق مظاهرات العمال أمام الميناء • انحنى أكثر الرأس الاشيب الذى لم تلاطفه ، أبدا ، يد امرأة أو توسد صدرا دافئا • انفرج الفم الواسع ولعقت شفتاه لسانا متهدلا ، لم يتذوق أكلة لذيذة من صنع أصابع مباركة غازلة للصوف • أشعلت أصابع البرونز سيجارة ملفوفة ، متواضعة، بحث الزمن الضائع وراء كل شبح متلفع بأزار أبيض وخطو رشيق لانثى تمشى فى غبشة المساء • امتطى بارودى الكرسى الطويل • كان عازفا عن كل شىء • فى رأسه انفجار من غضب • كان يفكر فى موضوع روايته الطويلة التى لم يستقم ، بعد ، خطها الرئيسى • كان بطل روايته بورجوازيا انحدر الى صف «الهومارة» وعمال الميناء • كان الصراع بينهم قويا • وكان البطل معقدا بعض الشىء وثائرا فى حد ذاته • لذا ترفز بارودى • قصير ، ممتلىء فى اعتدال كمصارع يابانى • الحاجب مقوس الى أعلى فى حالة استفهام دائمة للوجود السادر ، المتحرك ، المتغير والنابض بالغضب الذى يطارده • تحركت الخطوة الرشيقة • افترت الشفتان عن ابتسامة حنونة ودافئة •

جسد الفتاة السمراء الداكنة ، مكتنزا ، أنثوى ومتفجر الرغبة النائمة • المرآة من ورائها ، عكست عضلات ظهر محفور فى قطعة رخام برونزى • الثوب أخضر اللون ، تتعانق على سجادته ورود الربيع المتفتح الذى طالما حلم به بارودى ، فى صباه ، عندما كانت تقعده ألسنة الجارات والوالدة والفقهاء ، فى حضرة السباب والسخرة وحفظ الاوراد • عيناها تخترقان صدر بارودى • تخيلت هذا الصدر محفورا فى صخور الشاطىء ، فتنهدت • صدرها تعانقت عليه حمامتان كبيرتان، نامتا فى دفء عشهما • كانت تعشق صدر هذا الشاب المثلج الاعضاء، المحترق الصدر بحمل الاشواق ، اللاهث وراء اللغز • كان المطر غزيرا فى الخارج ، والريح تبكى وحدها وهى تصفر وتلتصق بأعواد الاشجار وأسلاك الفوانيس الساهرة تحت ليل المدينة • ضغطت اليد الخشنة التى تحمل ، تجذب ، تقطع الاكياس وتتوضأ من ماء النهر ، لتصلى ركعتين ــ شكرا ــ لخالق الليل والنهار ، على زر الدجوبكس • هامت أغنية متعبة • تحركت الرؤوس • كثر اللغط • ابتسمت الفتاة السمراء ومسحت شعرها الفليبنى • عاد الشيخ الى مائدته الصغيرة، وهو ، يأكل الفتاة السمراء بألف عين وفمه مفتوح كحافظة نقود قديمة • تقوس حاجب بارودى أكثر • دخن سيجارة محترقة كأشواقه وتسمرت حبة عينيه على التعويذة النائمة على صدرها • قرص مدور من البرونز عتيق ، على مساحة دائرته حبات من الاحجار الزرقاء ، تطل بألف عين سرية ، غامضة ومكهربة للناظر• ضحكت الفتاة وتناست ، فى تلك اللحظة ، أبناءها وأمها وكراء بيتها المتواضع بساحة الخبازات وأدوات المدرسة وأجرة الخادم التى تساعد أمها وأثوابها ، هى ، عند الخياطة وأجرة الحلاقة من أسبوع بذمتها ، وصانع الاسنان عبد القادر الطويل • كان المطر فى الخارج غاضبا • انطلق اللحن من حنجرتها فى بحة السنين القديمة والغابرة وراء صحراء المغرب ، تطاردها ذكريات القبائل الرحل فى قافلة الليل التى تهتدى بالنجوم • بحة أخرى تصعد لاهثة ، عاشقة ، متمردة عن وجودها لتقتل نفسها فى دفء صدر بارودى ، المثلج العضلات ،

الخافق الجوانح المحترقة ، تحت السترة الرمادية وربطة العنق الالمانية الصنع والقميص الابيض الناعم والخد الحليق ، كعذراء سترمي بنفسها ، من فوق مقدمة الزورق السابح على صدر النهر ، لتفرح الآلهة وتهب أرض الصحراء ، أرض الرجل الذى مات من ألف سنة ، الخير والبركة . سكبت يدها زجاجة الجعة فى كأس كبير . صعدت الفقاقيع الى السطح ، متدفقة ، مزدحمة كحمولة بركان ، سينفجر ويغطى القرى وبيوتها المتواضعة ، فى الصحراء ، بدخان كثيف ولزج، مؤلم . حملت الكأس ، برقة ، بين أصابعها وقدمتها لشفتين المقوستين على شكل وتر قوس ، سيضرب فى صميم القلب ، فيمزق حبة الحياة، ويطوى حياة ، كانت ، ضائعة بين الحاجز الخشبى والسهر والوجوه الجديدة والقديمة ، ونفس الابتسامة والانحناءة ، ونفس الكلمات الغارقة فى دسم العادة والروتين . فتح سترته . انعكست صورته فى ملايين من الفقاقيع الساهرة فى صدر الكأس . توقفت عينا الفتاة على صدره . نظرة محرقة ، دافئة ، تائهة كزورق تحت عصف الريح والمطر والخوف من الموج الطاغى الذى بدأ يستيقظ . انها تطلب المرفأ فى كل لقاء مع كل وجه جديد . لاتريد عقدا أبديا من الاستعباد . مات زوجها فى عراك سخيف من أجل أنثى . خلف لها أولادا هم فى رعاية والدتها التى تحترمها . أمها صحراوية ، تعرف سر التعويذة والبخور وحفر رموز الطلسم على الحبات الزرق فى الليل الغامق .

— لاول مرة أراك ها هنا .

قالت ذلك وشفتاها تلعقان لسانها الاحمر الصغير .

عزفت عضلات ظهرها المنحوت فى الرخام البرونزى ، بردا قارسا . المرآة ، من ورائها ، عكست سياج قنانى السكر والسهر والموت .

— هذا صحيح . لاول مرة أعثر على هذا المكان .

ضحك . دخن سيجارته . مسح شعره الطويل . سافرت نظراته في وجهها ، كطائر المساء ، يعود ، بشوق الى عشه . لاول مرة شعرت بعيني بارودي تحرقان وجهها ، جيدها وصدرها المتدفق عطاء ، كمزرعة قرب النهر ، تأكل من صدر الحبيب، ألف قطعة زمرد، ذهب . وتعب من دموع القمر الساهر على الربوات ، في ظل الاكواخ البسيطة ، حيث الاطفال نيام والكبار يحيكون حلولا لهموم الزمن الضائع والهارب على مركبة العمر بألف جواد نافر ومتمرد . هل من لقاء بعد هذا اليوم ؟ بعد هذه الامسية الساهرة والصاخبة ، بمقهى «المركيز ذي لفاييت» ؟ مدت يدها وكلها خوف ورهبة منه . ضمت يديه . لم يقل هو شيئا . ساهم التفكير . بعيد النظرات ، غائرها . غامق حرف العين المقوس في سؤال مستمر .

ـ لم هذا التفكير الطويل . أصبحت أخرس ؟

ـ ولم التكلم في أشياء تافهة ؟

ـ الصمت أحسن .

ـ في الصمت لغة أخرى .

وشعر بأنه أصبح ورقة مريضة تحت صفعة الريح التي كان يطاردها بدراجته ، عندما كان صغيرا ، لاهيا ، لايحمل هما للوجود ، تطعمه الشمس والغدير . تلاعبه الجراء وتحبه القطط .

ـ واذا سئمنا لغة الصمت ؟

ـ نعود للثرثرة الفارغة .

ـ بصحتك ..

شربا معا . ومن وسط الفقاقيع وجدار الكأس السميك ، رأى صورتها ، قد استحالت الى عنزة . ضحك في سره . تذكر في سرعة . ورأى نفسه ، صغيرا ، في غرفة الدرس ، يلتهم كتاب التلاوة

الفرنسية • صورة العنزة التي رفضت صاحبها «مسيو سوغـان» ، وبقلبها ألف عقد من الحب والشوق للجبل الساهر في ضوء القمـر الاصفر ، وقطرات الندى تؤلف ألف عقد للعنق الناعـم ، المتعطش للافق الازرق المعانق لرموش البحر • هناك بعيـدا ، حيث الكـوخ والمدخنة الضاحكة في المساء ، والزورق الراسي ، والرجل الاسمـر يصلح شبكته ، والاطفال يتصايحون ، وعقد من الذهب على حلمة ثدي المرأة المتجملة لسحر الليل • سكت الدجوبكس • نهض الرجل المسن كخشبة ميتة رماها البحر • رقص بجلبابه وشيبته • كان مهيبا في نظر البعض • كان ساخرا وساقطا في نظر البعض • اشتد اللغط •

ـ ابتعد عني • لاتسرق كأسي • الله يلعن أمك •

ـ الله يلعن دين أبيك •

اشتباك • عراك • سقوط وانهزام • هجوم مع تسديد الضربات غنى الدجوبكس • ضحك المركيز من وسـط اطار صورتـه • غنت الفتاة نغمها الحزين : «القلب ، يعشق كل جميل ••» • كان صوتها دافئا • التفت الرؤوس • تسمرت العيون على وجه الفتاة • كانت تغني • الدجوبكس كان ساكتا • الشيخ كان يصفق بحرارة • وبكت وهي تنهي غناءها الجميل • لاول مرة يحدث لها هذا • لم بكت ؟• سألت نفسها • ابتسمت • هجمت عليها التصفيقات • هجمت عليهما ـ هي وهو ـ الاباريق والاكواب • أغلق البار بابه • بقي الزبناء في سهرة غير عادية • وفي الخارج رشح الضباب خد الطوار • تحركت أقدام الشرطة في الليل • كانت تبكي على صدره وهي تغني له • كان الزبناء في منتهى السعادة • وعلى وجه البار ، كانت ، ضحكة قمـر أصفر وصغير ، تشاركهم متعة هذه الليلة ، الميتة كورقة من أوراق الخريف •

أنور المرتجى

حالة حصار

(اقصوصة)

كنت اظن أن العالم ينتهي حيث توجد هذه الاسوار ، الحدود موجودة داخل الوطن الواحد ، العمل اما أن تكون مرتزقا في الجيش الاسباني ، أو مهربا • والمهربون في هذا الوقت أناس شرفاء • يدخل في مشروعهم تهريب العملة الى مغرب «الداخلية» وارشاد الفدائيين الى الطريق الممر الذي لايعرفه جيش الاسبان والفرنسيين المعسكر على حافة المدينة انحسر العالم حتى ضاقت ، شمال المدينة حيث يجري لوكوس ، كنا نسمع عن أناس يتم اعدامهم يوميا • أن يسميك أحد المخبرين بالرخو ، فان شيئا مثل النجاسة قد أصابك • وبذلك تحق عليك لعنة الحاكم العسكري • كنا نتعاطف بسذاجة قاسية ضد هؤلاء «الرخو» ثم كبرت الكلمة الى أن صارت في حجم جثة أميدي ، فصارت تطاردني الان •

في هذه المدينة القفص باستثناء ابناء «الرخو» كان يوجد (عمي المغربي) وسيم في وقار المسيح ، ونحن أطفال كنا نتبعه في حارتنا ، كان يأتينا صباحا ، يعزف على طبله ، ذو الايقاع الدقيق ، لا اتذكر كيف تعلمت اللحن ، كل ما أعرف أنني كنت عضوا في كورال عمي «المغربي» ، كان الحماس كبيرا ، وعودة البطل قريبة ، لم يكن (المغربي) «كلونا» في حارتنا ، الاحترام يأتيه حتى من الكبار ، يقطع كل الاحياء يغني للحاضر وللمستقبل الذي يجري في دمه • ولم يكن نساء حارتنا ليختبئن منه حشمة ، كنا نتبعه مرددين الاناشيد معه ، كانت أمي تمنحه «بسيطة» وتدعو له بالتوفيق •

كلشي وديالنا — الاطفال : أيوى

الظلم ديالوم — الاطفال : أيوى

القشور ديالوم — الاطفال : أيوى

النظافة ديالنا — الاطفال : أيوى

النجاسة ديالوم — الاطفال : أيوى

لم أكن لاعرف كيف تدربت على النوته • كل ما أتذكر انني كنت أردد مع أطفال حارتنا النجباء منهم والبلداء ، «أيوى» • كنا نحس بأننا نشارك ، وأننا نكبر مع المعركة •

أصبح عمى (المغربى) شيئا من نسيج عملنا اليومى أن نفتقده فكأنني افتقدت يمينى •

الرواد من حارتنا ، لايعرفون عنه أكثر ما نعرف كل ما يحكون أنه انسان طيب ، وأنه يعرف ما يفعل ، والكبار فى المدينة ينظرون اليه بعين التقدير •

كنا نلعب لعبة المطاردة ، والمشاركون معنا من الاطفال اسبانيون لم أكن لاميز الفرق آنذاك ، كنت أظن أن العالم هكذا • صاح أحدنا وكان نحيفا طويلا رغم أنه الصغير ، لقد تأخر عمى (المغربى) عن الحضور • مرت يومان أحسسنا أن برنامجنا اليومى قد اختل ، سألت أمى عن غيابه ، فعضت على شفتها آسفة ، لابد أن يعود •

— × —

الحاكم العسكرى : أنت رجل «بوليتيكا» •

عمى المغربى : أنا جوال الحارات ، أقول الكلمة ، وآخذ المقابل •

الحاكم العسكرى : ذلك من أجل التغطية، أنت تهرب الارهابيين الى «لاسونا» •

عمى المغربى : ليس لى جواز ، وأنا ما غادرت فى حياتى هـذه المدينة • ويمكن أن يكون هذا القول من مغالاة المخبرين •

— × —

فى يوم من الاسبوع المقبل ، عادت دقات الطبل الى حارتنـا • وعاد معها الكورال الصغير يتقدمه عمى (المغربى) لم أشارك هـذه المرة ، كنت فى برج مراقبة ، مشدوها أنظر الى عمى (المغربى) • ما السر فى غيابه هذه المدة •

الشكامة ديالوم — الاطفال : أيوى

المخلصين ديالنا — الاطفال : أيوى

دفعتنى أمى من الوراء عمى (المغربى) عاد ، مالك لاتشارك !

— × —

كبرت حتى أصبحت فى حجم الرجال • وكبرت معـى تلـك الكلمة ، ما لك لاتشارك •

ولم تعد اسبانيا فى بلادى ، وأصبحت أزورها بجواز ، وغابت عنى صورة عمى (المغربى) فيمن عرفت من الناس •

كانت غيبتى هذه المرة طويلة ، نزلت من الستيام • تقدم رجل بدين ثقيل الى حقائبى : «كاين شى باليزات نعماس» ، مشيت أمامه وهو يتبعنى ، اقترب منى وهمس : «واش بغيت شى بنيتات» ، وقفت عند وجهه ، اننى أعرفه ، بصقت فى الارض ، وقلت هذا وطنى •

عثمان أشقرا

فاطمة

(أقصوصة)

ماتت أمي وأنا لما أتجاوز الثلاث سنوات من عمري . لذا فأنا لا أذكر عنها شيئا على الاطلاق . ولم يتزوج أبي بعدها . كان يحب أمي حبا جنونيا غريبا . وحتى اليوم ما يزال الرجال والنساء في الجبل يقصون حكايات محزنة عما أصاب أبي ليلة الحادث الاسود . لم تترك سواى وأختي وردية التي تكبرني بعامين . وانصرف أبي الى الاعتناء بنا بكل قلبه وفكره ورفض اقتراح عمتي بأن تأخذنا الى بيتها ما دام يصر على ألا يتزوج ثانية . وكان أبي يملك قطعة أرض وزيتون وبقرة وجوادا أدهم . وكبرت أنا وأختي وردية ولم نشعر يوما واحدا بالجوع أو البرد . وأصبح لي من العمر عشر سنوات . وكان بيتنا يقع على ربوة شبه عالية وهو مكون من حجرتين وزريبة ومصنوع من التراب الاحمر المخلوط بالتبن ويحيط به سياج من الصبار والنبك . وأمام باب البيت كانت تقوم شجرة تين ضخمة الجذع والفروع . وفي السنة التالية نجحت في امتحان القبول في الثانوى فاشترى لي أبي دراجة وقال بأن على أن أذهب لمتابعة دراستي في كوليج المدينة . وكان أبي في حوالي الاربعين من عمره ، طويلا وهزيلا لكن كفاه كانتا صلبتين وقاسيتين ومتشققتين كجذوع الشجر النافر العروق فوق الارض . ويوم سلمني الدراجة والمحفظة الجديدة قال لي :

ـ اسمع يا ولدي يا مولاي أحمد • أمك الله يرحمها كانت أمنيتها الوحيدة أن تراك كبرت وصرت رجلا • فهل تعدني الا تخيب أمنيتها هذه ؟

ولم أفهم ماذا يعني بالضبط بكلمة رجل • لكنى أحنيت رأسي موافقا وقبلني على خدي الاثنين وما بين عيني وقبلت رأسه • في الدوار وكل الناحية لم يكن أحد يناديني باسمي مولاى أحمد • كان الجميع يشيرون الى ويقولون : ولد فاطمة • وذات يوم سألت أبي عن ذلك فتنهد وقال : كلنا أولادها يا ولدي • ولم يزد حرفا فازدادت حيرتي •

وكبرت أختي وردية وصار لها من العمر أربعة عشر سنة • أصبحت امرأة في عيني بشعر أسود غزير ترسله في ضفيرة واحدة غليظة حتى ما بعد فخذيها و «قصة» طويلة فوق الجبين وعينان كبيرتان سوداوان • وذات مساء وأنا عائد من المدينة فاجأت أبي يطيل اليها النظر ، من خلف ، ويحك ذقنه الشعراء في سهوم • وانتبه الى فلاح بعض الاضطراب في ملامحه وانحنى يحمل المنجل وكيس الكلأ وقال لى :

ـ لكم تشبه وردية أمك يا مولاى أحمد حتى لانهما شخص واحد !

ومن يومها اهتممت أكثر بأختي وردية ورحت أطيل التحديق في عينيها الجميلتين • وشاع في الدوار فجأة أن الموسم سيقام هذه السنة أسبوعا قبل موعده المعتاد لان الفلاحين انتهوا هذه السنة من الحصاد باكرا • وحلت العطلة الصيفية فانقطعت عن الذهاب الى المدينة ورحت أقضي وقتي في صحبة أختي وردية غالبا وصحبة أبي أحيانا • وكان أبي مشغولا بالتهيء للموسم : اشترى «قضيب» جديد لوردية وحذاء وقميصا لي ووضع للفرس حوافر جديدة وراح ينطلق به كل صباح في سباقات وهمية على ضفة النهر • وفي المساء نجلس

معا نتأمل الغروب تحت شجرة التين وينصرف هو الى تزييت البارودة أو تلميع السرج وحذاء الركوب المطرز · وليلة افتتاح الموسم زارنا رجال سبق أن زرت بعضهم مع أبى فى الضفة الاخرى وزارنا الآخرون فى بيتنا · كانوا خمسة : أحدهم له ساق خشبية وآخر على خده الايمن ما يشبه أثر طلقة سلاح ناز · وتعشوا فى الداخل وبعد العشاء خرجنا تحت شجرة التين وأحضرت وردية الصينية ، وقال مولاى الشافعى :

– الله يرحمك يا فاطمة !

وسأل أبى عن رجل اسمه «البيضاوى» فضرب ذو الرجل الخشبية كفا بكف وصاح :

– باع نفسه يا سيدى هو الآخر وأصبح الان «شيخا» ذا سطوة ونفوذ !

وعلق مولاى الشافعى بصوته الهادىء الوقور : وهل أفلح خائن قط ؟ انتظر فسيأتى جزاءهم من حيث يعلمون ولا يعلمون · الله يرحمك يا فاطمة !

وعجبت لذكره اسم أمى مرارا منذ دخل بيتنا · فرحت أسارقه النظر فى استغراب وفضول · لقد قبلنى لما حضر على وجنتى وقال : الله يرحمك يا فاطمة ! وتدخل ذو الندب على الخد :

– تصوروا أننى ذهبت منذ أيام الى بيرو القائد فى شأن ورقة وأبرزت له ورقة المقاومة وأريته الندب على خدى فنفخ ساخرا وقال : هذا شىء عفا عليه الدهر · فهل عندك غيره ؟

وعلق السيد الهاشمى الذى لم يتكلم منذ خرجنا أمام البيت فى صوت بارد جاف :

– وهل فى هذا ما يدهش ؟ لقد وقع لآخرين ما هو أمر وأدهى؟

ثم راح يسرد قصصا عن ناس مات بعضهم فى مظاهرات ومعارك وقعت فى المدن والجبال وأنا ما أزال بعد جنينا في بطن أمى وفقد آخرون أذرعهم وأرجلهم وشوهوا ، وعذبوا ، واليوم من بقى منهم حيا فهو اما متشرد أو مهدد فى حريته وحياته . وقال أبى :

ـ ان هذا لن يستمر طويلا .

وقال مولاى الشافعى : الله يرحمك يا فاطمة !

وشعرت بمزيد من الدهشة والحيرة . ما كل هذه الالغاز ؟ وفى الغد استيقظنا باكرا وأردفنى أبى خلفه على الجواد ونزلنا حيث تنتظرنا الخيام .

وكانت الخيام قد أقيمت فى مرج منبسط وغير بعيد عن النهر، دوائر ومثلثات من الصوف الاسود والابيض على امتداد البصر وناس كثيرون وخيل تكر وتصهل . ودوت الطلقات الاولى فى هذا النهار الذى يطلع صافيا وسط مهرجان من الالوان والضحكات ودقات الطبول وأنغام الغيطة . وكان أبى ضمن كوكبة الفرسان ـ بالطبع ـ وقد ارتدى لهذا اليوم قفطانا أخضر . أما مولاى الشافعى «مقدم» الكوكبة فكان يتمنطق بحزام عريض مطرز ويتدلى على يمينه سيف ذو شكل هلالى . وزغردت وردية . وانطلقت الخيل تثير وراءها الغبار من جديد .

وكان السى على ـ ذو الساق الخشبية ـ الى جنبى ، يشد على يدى ، ويزداد شده ، ويقوى بارتفاع فوهات البنادق نحو الاعلى ، ودورانها فوق الرؤوس ثم الاستعداد للطلق ، والطلق . والتمعت عينا الكهل المعطوب واحتقن وجهه الصغير المدور بالدم وصاح :

ـ طر طلاق ! الله يعطيكم العز !

ورجع أبى والجواد تحته عرقان يلهث . وصاح مولاى الشافعى: لا زغاريد ولا والو . فين وردية ؟ آه الله يرحمك يا فاطمة !

وسرعان ما انفجرت عاصفة من الزغاريد داخل الخيام التى من حولنا وصاح السي علي : فين البارود ؟ وانطلقت وأياه نحشو البنادق من جديد • وفجأة جاء ذو الندب على الخد يهرول نحونا وصاح في أبى :

ـ لقد أخذوا السي الهاشمي من بيته هذا الفجر !

ووجم الجميع وتبادلوا النظرات الصامتة • ونطق مولاى الشافعي أخيرا :

ـ كان منتظرا • ألم يفعلوا نفس الشيء مع الكثيرين من رجال الحزب في المدينة ؟ وقرروا أن نبات في الخيام •

وأثناء العودة كان أبى صامتا وجامد النظرات بشكل رأيته عليه لاول مرة ، فلم أجرؤ أن أنبس خلفه بكلمة واحدة • كان الجواد يمشي الهويني وكانت الشمس تستعد للانطفاء في البعيد • وفاح في أنفي ما أعتقد أنه رائحة أوراق أو عيدان جافة تحرق في القريب • وخرج أبى من صمته فجأة وقال يخاطبني دون أن ينظر نحوى :

ـ هل تعرف يا مولاى أحمد أننا ربما لن نرى السيد علي بعد اليوم ؟ فالذى يأخذونه غالبا ما يظهر أو يعود !

ولم أعلق بشيء • وتنهد أبى : الله يرحمك يا فاطمة ! وهنا استجمعت شجاعتي أخيرا وطرحت السؤال الذى طالما أرقني • وأجاب أبى في اقتضاب وبنبرة خالية من الانفعال :

ـ أمك أخذوها من البيت ذات يوم واعتدوا على شرفها فما صبرت على العار وأغرقت نفسها في النهر • (صمت) • كانت تحمل الينا الاكل والاخبار الى الجبل قبل ٥٦ وقبل مدتها بسنة شتمت القائد الذى حل في الناحية محل الحاكم الفرنسي فانتظروا قليلا ثم أخذوها • الله يرحمك يا فاطمة !

اذن فهذا هو السر ! ووصلنا البيت ولم أنم الليل الا قليلا • الله يرحمك يا فاطمة • وانقضت أيام الموسم هذه السنة بطيئة كئيبة •

وسمعنا عن بعض اعتقالات واختطافات وقعت في أمكنة قريبة ومتفرقة ورجع أبي الى البيت ذات مساء مكفهر الوجه :

ـ لقد أخذوا مولاي الشافعي اليوم · انهم يتهمون كل من عنده بطاقة المقاومة الا من باع نفسه لهم · الملاعين ! كيف قطعنا ذنب الحية وغفلنا عن الرأس ؟!

ومرت شهور الصيف بطيئة ثقيلة ، وكل يوم كنا ننتظر أن يأتوا ويأخذوا أبي · فساد بيننا طيلة هذه الشهور جو من الكآبة والانتظار القاتل · وكان السي علي يزورنا في الفينة بعد الاخرى · وكان دائما يبدو ثائرا مهتاجا · وذات يوم صرخ في وجه أبي :

ـ كيف نسمح لهم أن يصيدونا واحدا واحدا كالدجاج ؟ والله لن يفكها الا البارود · أما ما يكتبه وما يعلنه أولائك الساسة في المدن فهراء في هراء !

ولاحت تباشير الخريف الاولى · وبدأت من جديد أغادر البيت في الصباح الباكر ولا أعود اليه الا مع المساء · وكانت الطريق الى المدينة تقع لعدة كيلو مترات بمحاذاة النهر فكنت أسوق الدراجة على مهل وأنا شارد الطرف أتأمل ماء النهر وهو يعكس في انسيابه وجه السماء الغائم الرمادي · وكانت أوراق كثيرة ميتة تعوم ويحملها التيار بعيدا نحو تحت · ما أثقل جو الخريف هذا العام !

وفي الكوليج بدأنا نسمع عن اضرابات وتمردات وقعت ببعض الثانويات في المدن الكبرى · وظهرت في الساحة مناشير تدعوا الى مقاطعة الدروس والنزول الى الشارع · ترى ماذا يخبيء الربيع في طياته؟ وكنت وقتها أخطو نحو الحادية عشرة من عمري: فتى منطو على وكنت وقتها أخطو نحو الحادية عشرة من عمري : فتى منطوى على نفسه ، خجول ولا يكاد يفارق الاكتئاب عينيه · وذات يوم قالت لي صديقتي ب· فاطمة :

ـ أنت يا أحمد رغم أصلك الفلاحي فنفسيتك نفسية برجوازي صغير ·

ولم أكن أفهم حرفا واحدا من كلامها . كانت تكبرني بثلاث سنوات وكانت أذكى فتيان وفتيات الكوليج على الاطلاق . وكانت تحفظ عن ظهر قلب أقوالا وفقرات لانعرف أين تتعلمها . وذات يوم استجمعت شجاعتي وقلت لها :

ــ هل تعرفين يا فاطمة أن أمي ــ واسمها هي الاخرى فاطمة ــ كانت تحمل الاكل والاخبار الى رجال جيش التحرير في الجبل . وأبي كان واحدا من هؤلاء الرجال ؟ ولاح الاهتمام في العينين الواسعتين السوداوين الجميلتين اللتين تشبهان عيني أختي وردية ورويت القصة . ومن يومها أصبحنا صديقين لايكاد أحدنا يفارق الآخر .

كانت عيناها تشبهان عيني أختي وردية كما قلت . وليس هذا فحسب ، بل كان في نظرتها وبسمتها ومشيتها وحالة وجهها عندما تنفعل وتغضب ـ وياما أكثر هذه الحالات ــ فقد كانت لاتكف عن الجدال والنقاش حول ما يقوله الآخرون ويعلقونه حول أخبار الحزب والاعتقالات والاحداث في المدن الكبيرة وكم كانت سريعة الغضب والانفعال لما يكون الطرف الآخر مستمسكا بفكرة تناقض وجهة نظرها ــ أقول كان في كل ذلك نوعا من السحر الغامض . شيئا ما أجهل كيف أعبر عنه وأصفه . لكنه قائم موجود فعلا . ألم يحدثني أبي بأن أمي كانت تأتيتهم في أعسر الاوقات وبمجرد ما كانوا يلمحونها قادمة ينسون أحزانهم وآلامهم ويهرعون اليها مهللين . ويوم شتمت القائد أما أختي المخازنية رؤوسهم وتركوها تمر قبل أن ينهرهم القائد ويصرخ فيهم بالهجوم عليها ؟ وقالت فاطمة بأنها ترغب في أن تزور بيتنا وتتعرف على أبي وأختي فرحبت بها والدنيا لاتكاد تسعني فرحا .

وجاء يوم جمعة مشمس دافيء . وكنت قد استيقظت باكرا ــ باكرا جدا ــ وقد أعلمت أبي وأختي بالزيارة وذهبت أنتظر على الضفة الاخرى من النهر . النهر هادىء ــ لا من هدير وانما وشوشة

واصطخاب واهن خائر مثل اصطخاب الافكار في ذهن مكدود . لقد أشمتت في الاسبوع الماضي طويلا وفي الجو ما تزال تشمع رائحة رطوبة وأرض مبلولة تتفتق عن أول أزهارها . ألم يقل أبي بأن الارض هذا العام تعد بربيع أين منه ما مضى ؟

وجاءت فاطمة أخيرا . كانت ترتدي بلوزة خضراء وتشد راسها ذا الشعر القصير المقصوص بمنديل أبيض عليه رسم وردتين أو ثلاث واستقبلنا أبي على عتبة البيت . وأحضرت وردية الصينية . وكانت فاطمة تريد أن تعرف كل شيء ، آخر أنباء الاعتقالات وأحوال الشعير والذرة والزيتون هذا العام . وقص عليها أبي قصة طويلة من حرب التحرير في الجبل . وكانت فاطمة تصغي بانتباه وقد سهم طرفها ، وفي الفينة بعد الاخرى تزيح خصل الشعر النافرة فوق عينيهـا . وانتهى أبي ثم اقترح علينا أن نذهب لرؤية العرصة . ولم يسبق لي قط أن أريت أبي في مثل انبساطه الساعة وانطلاق وجهه . وصار يدعو الضيفة : للا فاطمة . وأحسست بالاعتزاز والفخر . اليست صديقتي ؟

وجاء السي علي يقفز نحونا كالضفدع . تـرى ما الذي أتـى بالمعطوب في هذا اليوم بالضبط وكيف اهتدى الى مكاننا . وشد على يد فاطمة بقوة وصاح لاهثا :

ـ سألت عنكم في البيت فأرسلتني وردية الى هنا . كيـف يكون الجو على هذا الدفء في عز الشتاء .

وسألته فاطمة عن جريدة الحزب هل يقرأها بانتظام . فقـال نعم . وانطلق يتحدث طويلا وفي انفعاله المعتاد عن المضايقات التـي يتعرض لها بسبب ذلك من طرف القائد والشيخ . وكان يتكلم بفمه ويديه ورجليه وقد التمعت عيناه التماعا غريبا . ترى ما الذي أصاب الجميع اليوم ؟ ونحن في طريق العودة الى البيت رأيته يميل على أذن أبي ويهمس له :

ـ ألا يذكرك وجه هذه الصبية بشيء ؟ ثم مشيتها وطريقتها في النظر والكلام . والله لولا البلوزة الخضراء والشعرُ المقصوص لقلت بأنهما شخص واحد .

ولم يعلق أبي بشيء . لقد لاحظته منذ قليل ونحن نغادر العرصة فاذا به قد تبدل تبدلا عميقا . فارق السرور عينيه وحل محله وجوم وسهوم وشاع الهدوء على مجموع كيانه . وفي البيت ظل يسارق الضيفة نظرات طويلة مستكينة ويعلو صدره ولا يتنهد . ولم يفتح فاهه للكلام الا ساعة الوداع . قال :

ـ زورينا وقتما تشائين يا ابنتي (ثم اشار الى) انه أخوك .

وساد الدار صمت شامل بعد ذهاب الضيفة . وكانت الريح قد دفعت ببعض السحب فوق النهر فاكتست صفحته بثوب رمادي أغبر . وحمل أبي المنجل وكيس الكلأ وغادرنا صامتا . وكنت على يقين بأنه ليس ذاهبا الى المرج . ألم يقل لي السي على بأنه ذات يوم فاجأه واقفا تحت المطر ، على قبر أمي وقد طالت الوقفة لاكثر من ساعة ؟

ونزلت الى النهر . الله يرحمك يا أمي . وطار فوق راسي سرب من طيور بيضاء باطن الجناحين والصور . وأحسست بانكسار وجيشان في داخلي . كيف يموت الفرح في صدري فجأة ؟ وكان النهر ينساب هادئا بين صفين من الاشجار العالية ثم يلتوي على حد البصر ويغيب الى ما لانهاية . وشقشف عصفور في القريب .

بالامس نمت متأخرا . مكثت لاكثر من ساعة أتقلب في الفراش وأصغي الى خوار البقرة في الزريبة بين الفينة والاخرى . وحلمت أنني ألعب مع فاطمة على ضفة النهر العشيبة . وفجأة تركنا لعبنا وقعدنا الاربعاء جنبا لجنب تصغي الى نواح خائر ينبعث من أعماق الجبل والليل . ثم وهجت كلمات الاغنية :

ومن باب الدار جاية تتجرى

عنقتني وبكات معاى ، أمي الحنينة الله يهنيك» ·

وأفقت وفي فمي مذاق الملح والثرى المبلول ، فاطمة انى أحبك·

وفكرت فى أبى : ترى كيف يقضي ليلاته مطوقا بالظلام والوحدة ؟

وخفت ضوء الشمس واستحالت صفحة النهر الى آلاف المرايا الصغيرة المتكسرة بعضها فوق بعض · وعم المكان سكون تام الا ما كان من صهيل فرس من حين لآخر أو نباح كلب فى البعيد البعيد ·

«من باب الدار جاية تتجرى

عنقتني وبكات معاى ، أمي الحنينة الله يهنيك» ·

تمزق يا نهر بالنداء أما مزق أمي النداء فيك ؟ وقفلت راجعا الى البيع ، وكانت وردية أمام باب الدار تكنس الارض بحزمة من عيدان الدوم ، وسألتها عن أبى فأجابت بأنه لم يعد بعد · فجلست أسفل شجرة التين أنتظر · وطال الانتظار · وراحت وردية تنتحب الى جنبي · أضرب فى القاع فترتطم يداى بالصخر وأبحث عن ينبوع عزتك يا نهر كيف يتمزق فى ذا القاع السحيق · الحق أقول لكم يا أحبائى : كيف قطعنا ذنب الحية وغفلنا عن الرأس ؟

وفى الغد ركبت دراجتي ونزلت الى المدينة ·

أحدق فى أغوار عينيك فأرى قدرى · سأقلب أحشاء الارض وأريق دم ذبيحتي فوق عتبة بيتك وأسقط · أنا أسمع وقع خطاهم بين قبور الاحبة ـ لا قفوا ·· لن تدنسوا المكان فتلعنكم الارض وأعينهم الى الابد · كيف قطعنا ذنب الحية وغفلنا عن الرأس ؟ تعالى اسمك يا أم الكل وتقدس · وأنا خادم المكان وعبد مولاتي · قفوا · وأسندت دراجتي الى الجدار · داخل الكوليج يغلي والهتافات فى كل مكان · ولمحت السيد على وسط الحشد · كيف وصل الكهل المعطوب الى هنا ؟ وأبصرني فجاء ينط نحوى كالضفدع · وصاح فى وجهي والانفعال قد أحال وجهه المدور الصغير الى نقطة ضخمة من الدم :

ـ الاولاد يرفضون الانتظار والحوار وفاطمة تخطب فيهم هناك بان ينزلوا فورا الى الشارع .

ونظرت الى حيث أشار فأبصرتها . وكانت واقفة فوق الاكتاف وقد نبت لها شعر طويل أسود يسقط فى ضفيرة واحدة غليظة حتى ما بعد فخذيها وتتهدل «قصة» طويلة منه على عينيها . ورميت نفسى فى الحشد . ودوت أول الطلقات وكان الجو باردا نوعا ما فى مارس .

خريبكة ـ عثمان أشقرا

محمد ابراهيم بوعلو

جفاف..

(اقصوصة)

لم يدر كم من الوقت مضى على تعرفه على هذا الشخص الذى يحدثه الان ، كما لم يدر اى سبب يربطه اليه ، بل انه لم يتبين بعد ملامحه بوضوح ، ولكنه وجد نفسه يتحدث اليه فى لهفة ليريح نفسه بعض الشىء •

[●]

«اذا ما استمر الحال على ما هو عليه فان هذه السنة ستكون سنة جفاف فظيع ••!» ذلك ما فكر فيه ذوو العقول النيرة من سكان بلدتنا •• ولكنهم تريثوا قليلا فلربما أمطرت السماء فى آخر لحظة ، وسقت الارض والعباد •• وان كان هذا التريث لامعنى له اذا ما اعتبرنا أن الانتظار وحده عادة لايفيد فى اى شىء ، بل لابد من عمل ما يسد الطريق فى وجه المباغتات التى تفاجئنا بها الطبيعة فى آخر لحظة •• اذ ربما لاتنزل الامطار فى آخر لحظة ، ونظل تحت رحمة الجفاف •• ومهما يكن ، فان الذى حصل هو أن الناس جميعهم ظلوا فى انتظار ، سواء منهم الذين يفكرون أو الذين لايفكرون ••!

واشتدت حرارة الطقس ، بحيث لم نعد نشعر باى اثر لنسمة باردة ، فالشمس تلفح كل شىء ، والارض أصبحت محرقة لاتطاق ، والمياه أخذت تقل شيئا فشيئا •

لم يكن الفصل صيفا ينتظرّ منه مثل هذا الحر ، بل كان فصلا تنزل فيه الامطار عادة مما يسمح للارض أن ترتوى والآبار أن تمتلىء، أما الان فالظاهر أن الامطار لن تعرف تربتنا هذه السنة ، وأننا مقبلون على أزمة ماء ..

وقطعت الشمس على نفسها عهدا أن تبكر في الصباح بحرارة شديدة ، وأن تسحق كل الظلال في الهجيرة ، وأن تخنق الانفاس فى الاصيل ، وأن تترك لهيبها يفعل فعله بعد أن تتركنا الى الصباح على عجل لتعاود الكرة من جديد تبخر مياهنا ..

ولم نعد نستطيع النوم ليلا ، فلقد كنا نحرم من الهواء البارد فى البيوت ، التى أخذت تحتفظ بالحرارة بين جدرانها طيلة النهار لتلفحنا بها ليلا ، وتحول فراشنا الى قطعة من جحيم ، نتقلب فيه مآت المرات قبل أن يغمض لنا جفن ، لنستيقظ من جديد على عطش مميت ، ما أن نشرب ماءا حتى تتبلل أجسامنا بعرق غزير .. وتعبق رائحتنا المكان ، فنشمئز من نفوسنا ، ونكره رائحتنا ، ويشتد تضايقنا من أنفسنا ، ولكننا لانجد لنا منها مفرا ، مما يدفع أعصابنا الى أن تتوتر ، فتثور لادنى سبب ، ومن غير ما سبب .. ويا ما اشتدت خصوماتنا مع زوجاتنا وأطفالنا ، انقلبت علاقاتنا الطيبة مع بعضنا البعض الى شجار لاينتهى ، مما سبب لاعمالنا فوضى أخذنا نجنى مصائبها يوما بعد يوم .. ولكن مع ذلك فان بارقة من أمل كانت تراودنا من حين لآخر ، اذ أننا نعتقد ان كل شىء سينتهى بنزول الامطار التى ستغسل التربة والقلوب أيضا ، ولكن تخميننا ، فيما يظهر ، كان يتبخر مع مرور الايام . فالمياه التى كانت تجود علينا بها الآبار أخذت تقل شيئا فشيئا ، وأصبح خطر الماء ينذر بشر مستطير ..

وانتشرت بيننا الحيوانات تجوب الطرقات بحثا عن ماء تشربه أو ظل تستظل به ، فأصحابها انصرفوا عنها لما أعجزتهم الحيلة فى أن يوفروا لها أسباب الحياة ، مما يجعلنا نشاهد كل يوم عشرات

الموتى من هاته الحيوانات العجفاء ، التى ما لبث خطرها أن أخذ يداهمنا بشتى أنواع الامراض ، ناهيك من روائح نتنة تزكم انوفنا ، تزيد من توترنا وتخنق أنفاسنا ..

وظهرت بيننا طبائع لم نكن نعرفها فينا من قبل ، بل واختفى كثير من أصول المجاملات ، وعبارات التحيات والسلام ، فكنت تجد الواحد منا يلتفت الى الجهة الاخرى عندما تقع عينه على أحد اصدقائه أو أقاربه .. أو يعود راجعا من زقاق آخر حتى لايقدم مساعدة لامراة عجوز تطلب العون ..

وأخذت تختفى بعض عاداتنا التى دربنا عليها، كأن نحلق لحانا أو نمشط شعرنا ، بل ان ثيابنا هى الاخرى لم نعد نعيرها اهتماما ، فكثيرون منا لم يعودوا يقيمون وزنا لالوان ثيابهم التى أصبحت قذرة بشكل يدعو الى القرف ، ثم انتهى الامر شيئا فشيئا الى أنهم لم يعودوا يرتدون كل ثيابهم .

أما أولئك الذين كانوا يخمنون بأن هناك أياما جميلة ستعرفها بلدتنا فيما بعد التجأوا الى عادات أخرى يخفون بها حقيقتهم ، وسرعان ما بحث جلهم عن أمكنة يختفون فيها عن أعين الناس ، وهم يتحسرون على فرص ضاعت منهم عندما فكروا فى أن هذه السنة ستكون سنة خفاف اذا ما هم لم يسارعوا الى انقاذ الموقف قبل فوات الاوان .

وخيمت فى سماء بلدتنا سحابة رمادية دفعت السكان الى الخروج والتجمع كما لو كانت تحمل المطر الموعود ، تجود به على الارض والعباد . وأخذت بعض النفوس تستبشر خيرا .. وترددت بعض الكلمات الرقيقة ، وعبارات المجاملات ، والتفت الناس الى حالاتهم المزرية ، وكأنهم يضبطون أنفسهم متلبسين بجريمة نكراء .. وأطرقت الرؤوس الى الارض، وكأنها تتوقع أن ترى قطرات الماء الاولى تبلل التراب .. ولكنهم سرعان ما لبثوا أن ادركوا أن السحابة

ليست الا من فعل الحر ·· وأن عليهم أن يتقوقعوا داخل بيوتهم في حالة من يأس مميت ··

وفكر بعضنا في الرحيل ·· ولكن الى أين ·· ؟ وكيف ··؟ فبلدتنا نائية ، وأن أقرب نقطة منا لايمكن أن نصلها قبل أن يفعل العطش فينا فعله ونموت في قارعة الطريق ·· لذا لابد من صبر ·· ففي نهاية الامر «الصبر مفتاح الفرج» ··!

كان يمكن لاولئك الذين يحلو لهم أن يروا الجانب الهزلي في كل شيء أن يلتذوا بكثير من المواقف المضحكة ·· ولكن حتى هؤلاء لم يعودوا يرون الا الجانب المأساوي في هذه الحالة المزرية ، التي قررت أن تذهب بكثير من خصائصنا ومميزاتنا ·· فحتى الكلام لم يعد ممكنا ، لا لان هناك من يمنعنا من ذلك ، ولكن لانه ظهر لنا عدم جدواه ·· ولعله لاول مرة في بلدتنا يقع الصمت الابدي ، حيث ترى الناس ، وحتى الحيوانات تسير ببطء شديد ، وصمت مميت حتى ليتمنى المرء أن يسمع أغنية من تلك الاغاني التي كانت في السابق تقتحم أذنه بالرغم منه ·· بل لم يعد يتعرف حتى على صوته اذا ماهو استعمله عرضا ··

ولعل صياح الاطفال هو ما كان يسمع في بلدتنا ، فلقد كان العطش يأخذ منهم مأخذه فيلجأون الى الصياح والعويل الى أن يمنحوا قطرة ماء تدفع عنهم غلة العطش وتقربهم من الحياة ··

[●]

واستفاق على صوت وليده يصيح ، وتبين على الضوء الخافت بجانب السرير زوجه التي تقوم الى ابنها ، وأحس بعطش شديد يستبد به ، فأسرع في تناول كوب الماء يصبه في جوفه كما لو كانت به رغبة في أن يبعد عنه شبح الجفاف البغيض ··!